

ابن خلدون

حیانه و تراشه الفکری

تألیف

محمد عبداللہ عینان

المحامي

الحقوق كلها محفوظة
وَممنوع أى نقل أو ترجمة أو اقتباس إلا باذن خاص

ابن خلدون
حياته وراثه الفكرى

obeikandi.com

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

مقدمة

ما زال تراث ابن خلدون فريدا بين آثار التفكير الإسلامي ، وما زال يحتفظ رغم كره العصور بكل قيمته وروعته وجدته ، ويتبوأ مقامه بين تراث التفكير العالمي . ولكن ابن خلدون الذي اكتشفه الغرب وعكف منذ أكثر من قرن على دراسة آثاره ونقدها وتحليلها ، يُغْمَطُ في الشرق حقه ، ويغمر ذكراه ، وينسى تراثه . وبينما ظهرت في الغرب عنه وعن تراثه تراجم وبحوث نقدية عديدة ، اذا به لا يكاد يظفر بشيء من ذلك في الشرق موطنه وصاحب تراثه .

وقد كان مما يدعو الى الغبطة أن ذكر ابن خلدون أخيرا ، وترددت الدعوة لإحياء ذكراه لمناسبة انقضاء ستمائة عام على مولده ، فاستجابت دوائر التفكير والأدب في جميع البلاد العربية لهذه الدعوة الكريمة ، وأقيمت عدة حفلات علمية للاشادة بذكراه وخالد آثاره ، ولا سيما في تونس مسقط رأسه ومطلع مجده ، وفي مصر مقام

شيخوخته ومثوى رفاته ، وحفلات المجلات والصحف العربية
حيناً بمختلف البحوث عنه ، وبذلك مثلت ذكراه قوية بيننا مدى
حين ، والتفتت الأنظار نوعاً الى قراءته ودرسه .

ولما كان ابن خلدون في مقدمة المفكرين المسلمين الذين
عرفتهم وقرأتهم منذ الحداثة ، وطبعوا ذهنى بطابع عميق ، وكان
في مقدمة المؤرخين الذين أكبرت فهمهم للتاريخ ونقده وقيمه ،
فإن هذه الدراسة التي أقدمها اليوم للتعريف بابن خلدون وتراثه ،
إنما هى وفاء التلميذ لأستاذه ، التمسيت لكتابتها هذه الذكرى الستمائة
لمولد المؤرخ والفيلسوف العظيم ، وكنت أعترم أولاً أن أقدمها
باسم "ذكرى ابن خلدون" ولكنى خشيت ألا يدل اسم الكتاب
على حقيقة محتوياته فأثرت أن أقدمه باسمه الحالى .

وقد عنيت بأن أتبع حياة ابن خلدون بإفاضة ، وأن أفصل
الحوادث السياسية التي اشترك فيها واتصل بها . ولما كانت
حياته قطعة من تاريخ الدول المغربية في أواسط القرن الثامن ،
فقد رأيت أن أفصل تاريخ هذه الدول وتقلباتها في هذه الحقبة
وأن أشرح أوضاعها السياسية . كذلك عنيت بحياة ابن خلدون
في مصر عناية خاصة ففصلتها تفصيلاً وافياً ، وشرحت علائق
المؤرخ بالمجتمع المصرى المفكر ، وما وقع بينه وبين الكتاب المصريين
من صنوف الخصومة والجدل ، شرحاً ضافياً .

أما تراث ابن خلدون فقد رأيت أن أتناوله بطريق العرض والشرح المرسل ، ورأيت أن اجتنب الجدل والمقارنات المعقدة ، مع حرصى فى الوقت نفسه على مواطن التقدير والجدل المفيد . وقصدى بما كتبت فى ذلك أن أقدم تراث ابن خلدون الى الشباب المثقف بطريقة موجزة واضحة ، حتى اذا وقف عليه واستطاع أن يسيغه وأن يقدره ، ارتد الى أثر ابن خلدون نفسه يقرأه ويدرسه بإمعان وافاضة . أما دراسة البحث الغربى لابن خلدون ، وما تناول به تفكيره ونظرياته من التقدير والتحليل والمقارنة ، فقد افردت له فصلا خاصا يضم خلاصة وافية لكل ما كتب فى ذلك الشأن .

كذلك رأيت أن أضع بيانا فهرسيا عن كتاب العبر يتضمن شرح الأدوار التى مرت بها حتى تم نشره وظهوره ، والمخطوطات التى رُجع إليها فى نشره ، وما تُرجم منه الى مختلف اللغات الأوربية ، وما يوجد من مخطوطاته فى مختلف المكاتب . وشفعت ذلك ببيان مفصل لجميع المصادر العربية والغربية التى رجعت اليها ، والتى يُدرس فيها ابن خلدون وأثره ، لكى يرجع اليها من شاء التوسع والمزيد .

ان ابن خلدون على قَدَمه من حيث الزمن ، يجب أن يكون أستاذا لجميع الشباب الذى ينطق بالعربية . ويجب أن يقرأ

الشباب مقدمة ابن خلدون ، وأن يستعيدها مرارا وتكرارا ، لا يعجب فقط بما حوت من رائع التفكير والبحث ، ولكن أيضا ليستقى منها أساليب البيان والتعبير عن كثير من الآراء والخواطر الإجتماعية التي تجول بذهنه وكثيرا ما يتعثر في التعبير عنها ، ذلك أن مقدمة ابن خلدون اذا كانت ثروة لا تقدر في تراث التفكير العربي ، فهي أيضا ثروة لا تقدر في تراث البيان العربي .

فإلى الشباب المثقف في مصر ، وفي جميع البلاد العربية ، أقدم هذه الدراسة لشخصية ممتازة في التفكير الاسلامي ، وذهن عظيم مبتكر ، سبق الغرب كله الى وضع مبادئ الاجتماع ، وما زال موضع إعجاب التفكير الغربي وتقديره ، راجيا أن يجد الشباب في هذه الدراسة ما يحفزه الى قراءة ابن خلدون ودرسه والانتفاع بنفسه تراثه ما

محمد عبد العنان
المحامى

القاهرة في أواخر أكتوبر سنة ١٩٣٣

الكتاب الاول

حياة ابن خلدون

١

في المغرب والأندلس

٧٣٢ - ٧٨٤ هـ : ١٣٣٢ - ١٣٨٢ م

obeikandi.com

الفصل الاول

نشأة ابن خلدون

بنو خلدون . نشأتهم بالأندلس وظهورهم في ميدان الرياسة . نزوحهم الى المغرب . محمد بن خلدون والد المؤرخ . نشأة ابن خلدون ودراسته الأولى . فقده لأسرته وصحبه أثناء الفناء الكبير . دعوته لتولى كتابة العلامة في بلاط تونس .

كان العام الماضي مبعث ذكرى خالدة في التفكير الإسلامي : تلك هي انقضاء ستمائة عام كاملة على مولد ابن خلدون المؤرخ والسياسي والفيلسوف الإجتماعي . ولما كانت آثار هذا المفكر العظيم نبتوا بين تراث العربية أسمى مكانة ، بخدير أن تكون هذه الذكرى فرصة سانحة لدراسة حياته واستعراض آثاره ، فلم يحظ ابن خلدون رغم شهرته الواسعة ، ولم تحظ آثاره رغم نفاستها وطرافتها من تفكيرنا المعاصر ، بما يجب من درس ونقد واطلاع .

ترك لنا ابن خلدون ترجمة نفسه⁽¹⁾ ، ودون لنا بقلمه حوادث حياته منذ نشأته حتى مشرف خاتمته ، وصور لنا كثيرا من خلاله وخواصه ونواحي نفسه ، وقد نحسب لأول وهلة ونحن نتلو تلك السيرة الفياضة التي تركها لنا المؤرخ عن نفسه ، انه لم يترك لمترجمه كبير مجال للبحث والتحقيق ، وأن ليس عليه إلا النقل والتكرار ، وفي هذا الفرض كثير من الصحة ، فابن خلدون هو أخصب

(1) ستناول وصف هذه الترجمة عند الكلام على تراث ابن خلدون .

مصادرنا وأهمها في كل ما يتعلق بسيرة حياته وحوادث عصره ؛
ولكن مهمة المترجم الحديث لا تقف عند تدوين الوقائع والحوادث
المادية ؛ فاذا لم تك ثمة حاجة الى تحقيق الوقائع والحوادث ، فهناك
دائما وجهة التقدير واستخلاص النواحي المعنوية ؛ وهنالك اختلاف
الفهم والعرض . واذا كان ابن خلدون يقدم لنا سيرة حياته
وحوادث عصره التي ارتبطت بهذه السيرة ، فإنه يعرضها طبقا لفهمه
ووجهة نظره ، وقد يتأثر عرضه في كثير من الأحيان بالعاطفة
والهوى . وتحرى الحقيقة خلال هذه المؤثرات مهمة شاقة . فإذا
كنا نغيب بهذا التراث الذي تركه لنا المؤرخ عن نفسه ، ونجد فيه
ما يسهل مهمة ترجمته ، فإننا قد نشعر من جهة أخرى بالحرج
في كثير من المواطن التي نلمح فيها أثر العاطفة والهوى .
وإذا فسيكون تراث المؤرخ عمدتنا الاولى في ترجمته ؛ ولكنه
لن يكون مصدرنا الوحيد ؛ فهناك مصادر وتراجم عديدة أخرى
جديرة بالبحث والمراجعة ، ولا سيما عن حياته في مصر . وسوف
نستشيرها جميعا . وسنتبع أدوار حياته خلال هذا التراث كله .
ولكننا سنحاول ان نفهمها على ضوء الحقيقة المجردة ، وأن نستخلصها
من مختلف المؤثرات والأهواء .

ولد ابن خلدون بتونس في غرة رمضان سنة ٧٣٢ هـ (٢٧ مايو
سنة ١٣٣٢ م) في أسرة أندلسية نزحت من الأندلس الى تونس
في أواسط القرن السابع الهجري . وهو وليّ الدين عبد الرحمن بن محمد
ابن محمد بن محمد بن الحسن بن جابر بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن

ابن خلدون . ويرجع ابن خلدون أصله الى العرب اليمانية في حضرموت ، ونسبه الى وائل بن حجر ، ويعتمد في ذلك على رواية النسابة الأندلسي ابن حزم^(١) ، غير أنه يشك في صحة هذه السلسلة ، ويعتقد أن أسماء منها قد سقطت ، لأنه اذا كان خلدون هو جده الداخل الى الأندلس عند الفتح ، فان عشرة أجداد لا تكفى لقطع ستة قرون ونصف ، التي انقضت منذ الفتح حتى مولده ، وفي رأيه أنه يجب لقطعها عشرون باعتبار ثلاثة أجداد لكل قرن . وأما نسب جده خلدون الداخل إلى الأندلس ، فهو كما روى ابن حزم أيضا ، خالد المعروف بخلدون بن عثمان بن هاني بن الخطاب بن كريب بن معد يكر ب بن الحارث بن وائل بن حجر . فان خلدون طبقا لهذه النسبة سليل أصل من أعرق الأصول العربية اليمانية ، ولكن هنالك ما يحمل على الشك في صحة هذا النسب البعيد الذي يدونه ابن حزم لأول مرة في القرن الخامس الهجري ، ويقوى هذا الشك لدينا ما نعرفه من ظروف الخصومة والتنافس بين العرب والبربر في الأندلس ، فقد اشترك البربر في فتح الأندلس ، وقاموا بمعظم أعبائه ، ولكن العرب انفردوا دونهم بالرياسة والحكم ، واستمرت الخصومة بينهما أحقابا طويلة حتى اضمحلت العصبية العربية ، وتبدأت غلبة البربر منذ أوائل القرن الخامس . وكانت العروبة في الأندلس شرفا يُرغب في الانتساب إليه ، لما كان لها من السيادة والنفوذ ، ولكن الشك كان يحق بأنساب كثير من أهل العصبية والرياسة ، بل لقد تطرق هذا الشك الى أنساب زعماء

(١) توفى ابن حزم سنة ٥٤٥٧ هـ - ١٠٦٥ م .

الفاحين أنفسهم ، فقيل عن طارق بن زياد ، إنه من البربر وقيل إنه فارسي من موالى العرب . وهناك أيضا ما يبعث على التأمل في تعلق ابن خلدون بهذه النسبة العربية ، وهو أنه في مقدمته يضطرم نحو العرب بتزعة قوية من الخصومة والتحامل ، بينما نراه في مكان آخر من تاريخه يمدح البربر ويشيد بخلاتهم وصفاتهم (١) . وعلى أى حال فإن ابن خلدون ينتمى الى بيت من بيوت الرياسة فى الأندلس يرجع الى عصر الفتح ذاته . قدم جده الأكبر خالد المعروف بخلدون الى الأندلس فى جند اليمانية ونزل أولا فى مدينة قرمونة ، ونشأ بها بئته . ثم انتقل بنوه الى إشبيلية . ولم يظهر بنو خلدون على مسرح الحوادث إلا فى أواخر القرن الثالث فى عهد الأمير عبد الله بن محمد الأموى (٢٧٤ — ٣٠٠ هـ) ، ففى عهده اضطرمت الأندلس بالفتن ، وامتدت الثورة الى معظم النواحي ، وكانت إشبيلية فى مقدمة المدن الثائرة ، ثار بها أمية بن عبد الغافر ، وعبد الله بن الحجاج ، وكريب (٢) وخالد ابنا خلدون ، وهم يومئذ زعماء البيوت الكبيرة . وكان أمية حاكم المدينة من قبل الأمير محمد ، نخلع الطاعة واستبد بها ، وقتل ابن الحجاج ، فثار عليه بنو خلدون وبنو الحجاج ، واشتدوا فى مناواته ، وقاتلوه حتى قتل ، واستبد كريب بن خلدون بالأمر ، واستقل بإمارة إشبيلية . ولكن ثار عليه بنو الحجاج ، وتحالف زعيمهم ابراهيم مع ابن حفصون

(١) سنعرض الى ذلك فى فصل قادم .

(٢) وردت فى التعريف (كريت) — كتاب العبر ، ج ٧ ص ٣٨٠ . ولكن

الأرجح انها كريب .

أعظم ثوار الأندلس يومئذ والمتغلب على جنوبها ما بين مالقة ورندة، نخشى كريب أمره وأشركه معه في حكم إشبيلية . وكان كريب صارما شديد الوطأة فانحرف عنه أهل إشبيلية ومالوا الى ابراهيم لما رأوه من رفقه ولينه ، واتصل ابراهيم بالأمير عبد الله وحصل منه سرا على عهد بولاية إشبيلية ، ثم ثار في أهل المدينة بكريب وقتله ، واستقل بالإمارة وعظم أمره . واستمر بنو خلدون بإشبيلية ، طوال عهد الدولة الأموية ، ولكن دون زعامة أورياسة ، حتى كان عهد الطوائف واستيلاء ابن عباد على إشبيلية ، فعندئذ سطع نجم الأسرة ثانية ، وورقت الى مراتب الرياسة والوزارة في دولة بني عباد ، وشهد زعمائها موقعة الزلاقة الشهيرة التي انتصر فيها ابن عباد وحليفه يوسف بن تاشفين المرابطى على ألفونسو السادس ملك قشتاله (٤٧٩ هـ - ١٠٨٦ م) واستشهد جماعة منهم في الموقعة . ثم دالت دول الطوائف سريعا ، واستولى المرابطون على الأندلس مدى حين ، ثم قام الموحدون بالمغرب وانتزعوا الأندلس من المرابطين ، واقطعوا زعماءهم الولايات والمدن ، فولى على إشبيلية وغرب الأندلس أبو حفص زعيم هتاتة ، وتوارث بنوه الولاية . واتصل بنو خلدون بالولاية الجدد ، واستعادوا قسما من الجاه والرياسة .

ولما اضمحلت دولة الموحدين واضطربت أمور الأندلس ، وتضعفت قواعدها وثغورها وأخذت تسقط تباعا في يد ملك قشتالة ، نزع الأمير أبو زكريا الحفصى حفيد أبي حفص الى إفريقية سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) وخلع طاعة الموحدين بنى

عبد المؤمن ودعا لنفسه . وخشى بنو خلدون سوء العاقبة فغادروا
إشبيلية قبل أن تقع في يد النصارى ، ونزلوا حيناً بسبتة ، فأكرمهم
حاكمها الحفصي ؛ ثم لحق زعيم الأسرة يومئذ وهو الحسن بن
محمد بن خلدون رابع جد للمؤرخ بالأمير أبي زكريا في مدينة بونه ،
فأغدق عليه عطفه ونعمه ؛ ثم توفى الأمير زكريا وخلفه ابنه
المستنصر ، فولده يحيى ، فأخوه إسحاق ؛ وبنو خلدون خلال ذلك
ينعمون بالجاه والسعة . وفي عهد أبي إسحاق ، ولى أبو بكر محمد
ابن خلدون جد المؤرخ الثانى شئون الدولة ، وولى ولده محمد جد
المؤرخ شئون الحجابة حيناً لأبي فارس ولد أبي إسحاق وولى عهده ،
وكان قد استقل بحكم بجاية . ثم اضطرب ملك بنى حفص ، وثار
بهم زعيم يدعى ابن أبي عمارة وتغلب على تونس ، واعتقل أبا بكر
ابن خلدون وقتله وصادر أمواله ؛ وبقى ولده محمد فى بلاط بجاية ،
وخاض غمار المعارك التى نُسبت يومئذ بين بنى حفص والخوارج
عليهم ؛ ولبث يتقلب فى ظل بنى حفص فى مراتب الدولة . ثم
غلب على تونس زعيم الموحدين الأمير أبو يحيى اللخيانى سنة ٧١١ هـ
فقربه وتولى حجابته حيناً . ثم اعتزل الحياة العامة ، وبقى مع ذلك
على مكانته ونفوذه فى الدولة حتى توفى سنة ٧٣٧ هـ (١٣٣٧ م) .
أما ولده محمد وهو أبو المؤرخ ، فقد زهد فى الحياة السياسية ، وآثر
حياة الدرس والعلم ، وبرز فى الفقه وعلوم اللغة ، ونظم الشعر . وتوفى
إبان الفناء الكبير (أو الطاعون الجارف) سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٩ م)
وله من الولد عدّة : أبو زيد ولى الدين وهو المؤرخ ، وكان وقتئذ
فتى يافعا فى الثامنة عشرة ، وعمر وموسى ويحيى ومحمد وهو أكبرهم ،

ولم يظهر منهم الى جانب المؤرخ سوى يحيى الذى تولى الوزارة فيما بعد.^(١)

— ٢ —

كان ابن خلدون اذا سليل أسرة عريقة ناهية ، وبيت علم ورياسة ، فنشأ فى مهاد هذا التراث الذى تلقاه عن أسرته ، تهديه جدودها وتقاليدها ، ودرج فى حجر أبيه ، فكان معلمه الأول ، وقرأ القرآن وحفظه ، وتفقه فى القراءات السبع ، ودرس شيئاً من التفسير والحديث والفقه ، ودرس النحو واللغة ، على أشهر أساتذة تونس . وكانت تونس يومئذ مركز العلوم والآداب فى بلاد المغرب ، وكانت منزل رهط من علماء الأندلس الذين شتتهم الحوادث أو ضاق بهم الوطن . ويذكر لنا ابن خلدون أسماء معلميه وأساتذته فى كل علم وفن ، ويعنى عناية خاصة بترجمتهم ووصف مناقبهم ، ويذكر لنا أيضاً أسماء بعض الكتب التى درس فيها . ويبدو مما كتبه فى ذلك أنه تخصص نوعاً فى درس الحديث والفقه المالكي ، وعلوم اللغة والشعر^(٢) . ثم درس المنطق والفلسفة فيما بعد أثناء حياته العملية ، وينوه ابن خلدون بتفوقه فى درسهما^(٣) ، وقد شهد له جميع أساتذته وأجازوه^(٤) .

وعكف ابن خلدون على التحصيل والدرس حتى بلغ الثامنة عشرة . وهنا طافت بالمغرب تلك الكارثة العظمى التى نكبت

(١) ذكر ابن خلدون اخوته هؤلاء فى مواضع متفرقة من « التعريف »

(٢) راجع التعريف — كتاب العبر — ج ٧ ص ٣٨٤ و ٣٨٥

(٣) كتاب العبر — ج ٧ ص ٣٨٦ و ٣٩١ .

(٤) من الإجازة وهى شهادة الأستاذ لتلميذه بأنه أتم دروسه بنجاح .

العالم الاسلامي كله من سمرقند إلى المغرب ، ونعني بها الفناء الكبير أو الطاعون الجارف كما يسميه ابن خلدون ؛ وهو نفس الوباء الفاتك الذي عصف يومئذ بإيطاليا ومعظم الأمم الأوربية ، والذي ترك لنا عنه معاصره وشاهده بوكاشيو أروع الصور (١) .

وقد وقعت هذه النكبة بالشرق والمغرب معا سنة ١٣٤٩ م (٧٤٩ هـ) ، وهلك فيها والدا المؤرخ وجميع شيوخه ومعظم سكان تونس . ويشير ابن خلدون إلى تلك النكبة غير مرة في لهجة مؤثرة فيقول إنها : « طوت البساط بما فيه » ، وفيها : « ذهب الأعيان والصدور وجميع المشيخة وهلك أبواي رحمهما الله » ، ثم يقول لنا إنه استوحش لذهاب أهله وشيوخه وتعذر عليه الاستمرار في الدرس ، فعول على التزوج إلى المغرب الأقصى حيث تزح بعض شيوخه وأصحابه ، فردّه عن ذلك أخوه الأكبر محمد . ولم يمض طويل على ذلك حتى سنحت له فرصة النزول إلى ميدان الحياة العامة ، إذ استدعاه أبو محمد بن تافرا كين طاغية تونس يومئذ ، لكتابة العلامة عن محجوره وأسيره السلطان الفتي أبي اسحاق ؛ وكتابة العلامة هي التوقيع باسم السلطان وشارته على المخاطبات والمراسيم الملكية ؛ وكان المؤرخ يومئذ حدثا في دون العشرين .

(١) تناولنا تاريخ هذا الوباء ووصف مناظره في الشرق والغرب في فصل خاص

في كتابنا مصر الاسلامية (ص ٨٨ — ٩٥) .

الفصل الثاني

آبن خلدون فى بلاط فاس

أوضاع إفريقية السياسية فى القرن الثامن . بنو حفص وبنو عبد الواد وبنو مرين . السلطان أبو الحسن واستيلائه على تونس . أحوال الدول والقصور المغربية فى هذا العصر . تأثير الحركة الفكرية بالتطورات السياسية . أمنية ابن خلدون فى النزوح إلى المغرب . فراره من تونس . اتصاله بالسلطان أبو عنان ملك المغرب الأقصى . توليه الكتابة والتوقيع له . أطاعه ونفسه الوثابة . خوضه لغمار الدسائس . اتهامه بالآمر . حجته ومحتته . إفراج الوزير حسن بن عمر عنه وردّه الى وظائفه . انتباهه لنقرص وانقلابه على الوزير عمر . دعوته للسلطان أبو سالم وتآمره على السلطان منصور . جلوس أبو سالم وتوليته كتابة السر والانشاء لابن خلدون . شعر ابن خلدون ونثره فى هذا العهد . ولايته لخطة المظالم . سقوط أبو سالم ومصرعه . تغلب الوزير عمر ابن عبد الله على الدولة . انضواء ابن خلدون تحت لوائه . النقرة بينه وبين الوزير . اعتزاه الرحلة الى الأندلس .

— ١ —

ويمدر بنا قبل أن نتبع المؤرخ فى أدوار حياته العامة ، وتقلباته فى دول المغرب وقصوره ، أن نذكر كلمة عن أحوال هذه الدول والقصور .

كانت إفريقية الشمالية منذ أواخر القرن السابع الهجرى مسرحا للثورات السياسية العنيفة ، وكانت دولة الموحدين قد انهارت دعائمها وقامت على أنقاضها دويلات وإمارات عديدة . فقامت فى تونس

(إفريقية) دولة بني حفص ، وقامت دولة بني عبد الواد في تلمسان والمغرب الأوسط ، وقامت دولة بني مرين في فاس والمغرب الأقصى . وقامت في ظل هذه الدول وخارجها إمارات صغيرة في بعض القواعد والثغور على يد بعض الخوارج والزعماء الأقوياء . وكان أكبر غم في تراث الموحدين لبني مرين ؛ وكانت دولتهم أعظم الدول الجديدة وأقواها ، تشمل المغرب الأقصى وسبته وجزءا من المغرب الأوسط وأحيانا جبل طارق . وكان عميدهم ومؤسس دولتهم السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق الذي غزا الأندلس أكثر من مرة ، وتوفي سنة ٦٨٥ هـ (١٢٨٦ م) . وتعاقب من بعده على العرش عدة من الملوك الأقوياء . وكان على عرش فاس في العصر الذي نتحدث عنه السلطان أبو الحسن ؛ تولى الملك بعد وفاة أبيه السلطان أبي سعيد سنة ٧٣١ هـ (١٣٣٠ م) . وكان يجيش بأطماع ومشاريع كبيرة . ففي سنة ٧٣٣ هـ غزا جبل طارق وافتتحها من يد النصارى . ثم زحف على المغرب الأوسط ، وما زال يفتح ثغوره تباعا من يد بني عبد الواد حتى استولى على تلمسان قاعدة ملكهم سنة ٧٣٧ هـ . وبذا امتدت دولة بني مرين شرقا حتى حدود إفريقية (تونس) . وأخذ السلطان أبو الحسن بعد ذلك يتطلع الى فتح إفريقية من يد بني حفص أصهاره وأصدقائه ؛ فسار إليها في أوائل سنة ٧٤٨ هـ بعد أن عقد لابنه السلطان أبي عنان على المغرب الأوسط . واستولى على تونس من يد سلطانها عمر بن أبي يحيى ؛ ولبث نحو عامين في تونس يوطد شئونها ؛ ولكن الثورة سرت أثناء غيابه إلى المغرب الأقصى

وخرج كثير من الثغور عن طاعته ، وبلغه تحفز ولده السلطان
أبي عنان لانزاع العرش ، فاختار ولده الفضل لولاية تونس ،
وغادرها سنة ٧٥٠ هـ إلى المغرب الأقصى . وفي ذلك الحين كان
بنو حفص قد استجمعوا أمرهم لاسترداد ملكهم ، وظهرتهم
الثغور وبايعتهم ، فلما غادر أبو الحسن تونس ، زحف عليها المولى
الفضل بن السلطان أبي يحيى ، واستولى عليها ، واستعاد ملك
أسرته . ولكنه لم يلبث طويلا حتى خرج عليه الوزير أبو محمد
عبد الله بن تافراكين ، وانزع منه العرش وأقام فيه أخاه الطفل
أبا اسحق بن أبي يحيى في كفالته وتحت استبداده ، وذلك في أوائل
سنة ٧٥١ هـ .

هكذا كانت أحوال الدول المغربية في منتصف القرن الثامن
الهجرى : كانت الثورات والانقلابات السياسية دائمة لاتقطع ،
والدول تتعاقب بين مختلف المتغلبين والأسر . وكانت تقوم
إمارات صغيرة متعاقبة ، في القواعد والثغور الوسطى مثل بجاية
وقسنطينة ، وبونه ، وتلمسان ، وتضطرم حول امتلاكها معارك
لانهاية لها ، فكانت عروش المغرب يومئذ تهتز كلها في يد القدر ،
وكانت قصوره لذلك مهبط الأطماع والمنافسات ، ومكن الدسائس
والمكائد ، ومطمح أنظار المتغلبين والمتنافسين في طلب الرياسة
والملك ، وكانت العروش والإمارات دائمة التقلب والتداول ،
والحروب والمعارك الأهلية دائمة الضرام بين مختلف الأسر وأفروع
الأسرة الواحدة . ومع ذلك فقد كانت هذه القصور المضطربة
تسطع في فترات السلم القليلة ، وتتنافس في البهاء والبذخ ، وتجذب

إليها رجال التفكير الأدب . وكان بنو حفص ، وبنو مرين بالأخص ملاذ العلماء والأدباء ، يلتفون حولهم ويستظلون برعايتهم ويتقبلون في نعمهم ؛ ويتولون لديهم مناصب النفوذ والثقة . ونلاحظ في تاريخ المغرب في هذه الحقبة أن الحركة الفكرية تزدهر وتستقر وتنقل طبقا لأحوال الدول وتقلباتها ، وانها كانت كالدول دائمة الاضطراب والتنقل ، وانها لا تكاد تحتشد حول قصر معين ، حتى تهرع إلى غيره كلما انتابه الوهن والانحلال . وكما أن الحركة الفكرية كانت يومئذ في المغرب دائمة الاحتشاد والتنقل حول دوله وقصوره ، فكذا كانت دائمة التردد بين المغرب والأندلس . وكانت غرناطة لا تزال مهد حركة فكرية زاهرة ، ولكن الأندلس كانت تضيق يومئذ بعلمائها وأدبائها خصوصا بعد أن قصت مملكة قشتالة النصرانية أطرافها ، واستولت على معظم ثغورها وقواعدها ، ولذا نرى كثيرا من علماء الأندلس وأدبائها يترحلون إلى المغرب باعتباره أوسع آفاقا وأوفى طمأنينة وأيسر رزقا في معتك هذه الظروف والأحوال بدأ ابن خلدون حياته العامة . وكان بنو خلدون منذ نزحوا إلى إفريقيا في أواسط القرن السابع يستظلون برعاية بني حفص وينعمون في ظل دولتهم بمراتب الجاه والنفوذ . ولكن الدولة الحفصية كانت يومئذ في دور انحلالها ، وفقدت أسرة المؤرخ كثيرا مما كانت تتمتع به من الجاه والرزق ؛ وكان ابن خلدون يتطلع بلا ريب إلى اجتناء تراث أسرته ، وإحياء نفوذها الذاهب ، وكان رأسه الفتى يضطرم بلا ريب بكثير من الأطماع والمشاريع . وقد سنحت له أول فرصة للنزول

إلى ميدان الحياة العامة ، حينما استدعاه ابن تافراكين كما قدمنا
لكتابه العلامة عن محجوره السلطان أبي اسحاق ، وذلك في أواخر
سنة ٧٥١ هـ (١٣٥٠ م) . ولكن ابن خلدون كان ينظر إلى ضعف
حكومة تونس واضطراب أحوالها بعين التوجس والجزع . وكان
بنو مرين قد غلبوا على تونس نحو عامين كما قدمنا ، وشهد ابن
خلدون قوتهم وضخامة سلطنتهم ، ولما غادر السلطان أبو الحسن
تونس إلى المغرب الأقصى ، غادرها في ركبته معظم المفكرين والأدباء
من شيوخ ابن خلدون وأقرانه ، إشارا للعيش في ظل الدولة
القوية الظاهرة ، وطموحا إلى اجتناء الجاه والرزق بعد أن نفقت
سوقهما في تونس . وكانت مثل هذه الأمنية تجيش بنفس المؤرخ ،
ولكن أخاه الأكبر صده حينما عن تحقيقها ، فلما استدعى لكتابة
العلامة أخذ يترقب الفرص للتروح إلى المغرب الأقصى ليجت
وراء طالعه وليعالج تحقيق أطماعه حيثما يلوح أفق المغامرة أوسع
وأجدى .

ولم يمض سوى قليل حتى سنحت هذه الفرصة ، ففي أوائل
سنة ٧٥٣ هـ ، زحف أمير قسنطينة أبو زيد حفيد السلطان يحيى
في قواته وجموعه على تونس يريد الاستيلاء عليها واسترداد تراث
أسرته من قبضة الوزير المغتصب ابن تافراكين . فسار ابن
تافراكين في جنده إلى لقائه وصحبه ابن خلدون في ركبته . ووقعت
بين الفريقين عدة معارك كانت الدائرة فيها على جند تونس ،
وانسل ابن خلدون خلسة من المعسكر المهزوم ناجيا بنفسه ، وأقام

حيناً في أبة عند بعض شيوخ المرابطين ؛ ثم قصد سبتة ، ثم ارتد
الى قفصة حيث وافاه بعض فقهاء تونس ، وكان يحاصرها عندئذ
أمير قسنطينة ؛ ومن هنالك سار معهم الى بسكرة وقضى بها الشتاء .
وفي ذلك الحين كان السلطان أبو الحسن ملك المغرب الأقصى
قد توفى (في ربيع الثاني سنة ٧٥٢) على أثر خروج ولده السلطان
أبي عنان عليه واستيلائه على فاس . وكانت أبو عنان أميراً وافر
البأس والعزم فما كاد يستقر على عرش أبيه ، حتى أخذ يهيء
العدة لافتتاح المغرب الأوسط واستعادة تلمسان التي افتتحها أبوه
من يد بني عبد الواد ثم استعادوها لأعوام قلائل . فزحف عليها
في أوائل سنة ٧٥٣ واستولى عليها وقتل ملكها أبا سعيد ؛ ثم
استولى على بجاية بدخول صاحبها في طاعته . وكان ابن خلدون
يومئذ في بسكرة كما قدمنا ، فسعى الى لقاء السلطان أبي عنان أثناء
مقامه بتلمسان ؛ ويقول لنا المؤرخ إن السلطان أكرمه بما لم يكن
يحتسب ، وردّه مع حاجبه ابن أبي عمرو الى بجاية حيث شهد
مراسيم البيعة والتسليم . فلما عاد الحاجب الى السلطان ، وهرعت
معه الوفود الى ركابه سار ابن خلدون معهم وحظي بلقاء السلطان
وكرم وفادته مرة أخرى . ثم ارتد السلطان الى فاس عاصمة ملكه ،
وارتد ابن خلدون مع ابن أبي عمرو الى بجاية ، وأقام هنالك عنده
حتى أواخر سنة ٧٥٤ هـ (١٣٥٣ م) .

ولبت ابن خلدون يسعى في الالتحاق ببطانة السلطان أبي
عنان حتى ظفر ببغيته . ويقول لنا ابن خلدون ان السلطان هو
الذي استدعاه بعد أن جرى ذكره أمامه في مجلس عقد لاختيار

طلبة العلم ؛ فقدم الى فاس سنة خمس وخمسين ، وعينه السلطان عضواً في مجلسه العلمي وكلفه بشهود الصلوات معه . وما زال يدينه ويقربه حتى عينه في العام التالي ضمن كتابه وموقعه . على أن ابن خلدون يقول لنا إنه قبل هذا المنصب على كره منه لأنه ليس من المناصب التي شغلها أسلافه ، أو بعبارة أخرى كان دونها مقاما وخطورة . وفي ذلك ما يدل على مبلغ ما كان يجيش به المؤرخ رغم حداثة من الأطماع الكبيرة . على أنه استطاع أثناء مقامه بفاس ، أن يستأنف الدرس والقراءة ، على جماعة من أكابر العلماء الوافدين اليها من الأندلس وباقي أقطار المغرب . ولا ريب أنه استفاد كثيرا في تلك الحقبة ، ونمت معارفه نموا كبيرا .

ومن ذلك الحين يغدو ابن خلدون شخصية ظاهرة في تاريخ الدول المغربية في هذا العصر ؛ تأخذ بقسط بارز في تطورات هذه الدول وتقلباتها ، وتشترك أحيانا في تدبير عوامل نهوضها أو سقوطها ، وأحيانا تثير بينها ضرام الكيد والتنافس والقتال . وكان ابن خلدون لا يزال عندئذ فتى في نحو الثانية والعشرين من عمره ؛ ولكن ذكاه وقوة نفسه وعزمه ، ووفرة أطماعه ، واعتزازه بتراث أسرته ، كانت تحفزه دائما إلى طلب المزيد من الجاه والنفوذ والرزق . وكانت أحوال الدول والقصور المغربية في ذلك العصر ، كما بينا ، مما يفسح مجال النهوض والتقدم للطامعين ذوى الكفاية والعزم . وكانت صلة ابن خلدون بالسلطان أبي عنان ، وهو يومئذ أعظم سلاطين المغرب ، وانتظامه في سلك ذلك البلاط العريض الزاهر ، مُفتتح أفقه ، وبدأ ذلك النشاط السياسي الزاخر

الذى لبث مدى ثلاث قرن يحمله بين دولة ودولة، وبين قصر وقصر؛ وبين الرفعة والسقوط، والنعم والمحن، مرارا .

لم يمض على انتظام آبن خلدون في بلاط فاس عامان حتى تحركت نفسه الوثابة إلى خوض غمار الدسائس السياسية . ومع أن سيده وحاميه السلطان أبى عنان لم يدخر باعترافه وسعا في اكرامه والعطف عليه، ومع أنه ولاه رغم حداثة منصب الكتابة واختصه بمجلسه للمناظرة والتوقيع عنه ، فإنه لم يحجم عن التآمر عليه مع الأمير أبى عبد الله محمد صاحب بجاية المخلوع ، وكان يومئذ أسيرا في فاس . ويروى لنا آبن خلدون قصة هذه المؤامرة في عبارة غامضة^(١)؛ ويعترف بما وقع بينه وبين أمير بجاية الأسير من التفاهم ، وأنه خرج في ذلك التفاهم عن حدود التحفظ . ولكنه يعتذر لنا بأنه حُمل على ذلك بما كان بين أسرته وبين بنى حفص الذين ينتمى إليهم الأمير المخلوع من الود القديم . وكان السلطان أبو عنان يومئذ مريضا فنمى إليه خبر المؤامرة ، وأن آبن خلدون يعمل لفرار أمير بجاية واسترجاع ملكه ، على أن يوليه حجابته متى تم له الأمر^(٢) . فأمر بالقبض عليه وألقاه في غيابة السجن ، ومع أنه أطلق أمير بجاية فيما بعد ، فإنه أبقى المؤرخ يرسف في أغلاله . ونزات بابن خلدون تلك المحنة التي ينسبها إلى سعاية خصومة في أوائل سنة ٧٥٨ هـ (١٣٥٧ م) .

وقضى ابن خلدون في ظلام السجن زهاء عامين طويلين ،

(١) كتاب العبر — ج ٧ ص ٤٠٣

(٢) كتاب العبر — ج ٧ ص ٤١٧

وتضرع الى السلطان أبي عنان مرارا أن يطلقه ، ولكن السلطان
أعرض عن كل تضرع وشفاعة ؛ وأخيرا رفع اليه قصيدة طويلة
في نحو مائتي بيت يلتمس عطفه وصفحته ؛ وقد ذكر لنا منها
الآيات الآتية :

على أى حال لليالى أعاتب وأى صروف لازمان أغالب
كفى حزنا أنى على القرب نازح وأنى على دعوى شهودى غائب
وأنى على حكم الحوادث نازل تسالمنى طورا وطورا تحارب

* * *

سلوتهم الا اذكار معاهد لها فى الليالى الغابرات غرائب
وإن نسيم الريح منهم يسوقنى اليهم وتصبيني البروق اللواعب
ويقول لنا ابن خلدون إن قصيدته وقعت من السلطان
أحسن موقع . وكان أبو عنان يومئذ بتلمسان فوعد بالإفراج عنه .
ولكن المرض اشتد به وتوفى قبل تحقيق الوعد فى ذى الحجة
سنة ٧٥٩ (أواخر ١٣٥٨ م) . فعندئذ بادر الوزير الحسن بن عمر
القائم بأمر الدولة باطلاقه مع جماعة من المعتقلين الآخرين ، وورده
الى سابق وظائفه ، وأغدق عليه عطفه ، وأحسن رعايته ومثواه .

— ٣ —

ولما توفى السلطان أبو عنان ، أقصى الوزير الحسن بن عمر
ولده وولى عهده أبا زيان عن الملك ، وأقام ولده الطفل السعيد على
العرش ، واستبد بالدولة وقتل منافسيه من الوزراء الآخرين .
وكان أبو عنان حينما انتزع العرش من أبيه قد قبض على أخيه
المولى أبى سالم ونفاه الى الأندلس مع باقى اخوته ؛ فلما توفى أبو عنان

بادر أبو سالم بالسعى إلى استرداد العرش وعبر إلى المغرب بعد صعب جمة ، ونزل بجبال غمارة ودعا بالملك لنفسه ، فاجتمعت إليه قبائل غمارة وظاهرته على أمره ، وحدث في الوقت نفسه انقلاب جديد بفاس . ووثب منصور بن سليمان وهو من عقب يعقوب بن عبد الحق بالوزير الحسن فانتزع السلطة من يده ، وتوارى الوزير وسلطانه السعيد ، فحاصرهما المنصور . وألقى ابن خلدون في تلك الحوادث فرصة للعمل والظهور ، وقام خلالها بدور لا يحمد . وقد كان تصرفه في حق السلطان أبي عنان بادرة سيئة تم عن عواطف وأهواء ذميمة ، بيد أنه لم يكن وليد خطأ مؤقت ، بل كان بالعكس عنوان نزعة متأثلة في النفس ، وثمره مبدأ راسخ . كان ابن خلدون رجل الفرص ، يتهمزها بأي الوسائل والصور ، وكانت الغاية لديه تبرر كل واسطة ، ولا يضيره في ذلك أن يجزى الخير بالشر والإحسان بالإساءة ، وهو صريح في تصوير هذه النزعة لا يحاول إخفاءها . فقد أطلقه الوزير ابن عمر من الأسر ، وأحسن إليه وأثابه ، ولكنه ما كاد يرى وثوب المتغلب منصور بن سليمان حتى ترك جانب الوزير إلى جانب خصمه ، وتولى الكتابة للملك الجديد ، بيد أن ولاءه لم يطل ، فإن السلطان أبي سالم نزل في غمارة وأخذ يدعو لنفسه ، فاتصل مبعوثه الفقيه ابن مرزوق بابن خلدون سرا ، وسلمه من أبي سالم كتابا يرجوه فيه بث دعوته والتمهيد لعوده ويعده بأجمل خير وحظوة ، فقام ابن خلدون بالمهمة ، ومضى في تحريض الزعماء والشيوخ حتى استجابوا للدعوة أبي سالم ، وأجمعوا أمرهم على تأييده ، وكذا وافق الوزير ابن عمر على طاعته بعد أن

أجهده الحصار . ثم غادر ابن خلدون سيده بجأة مع نفر من الزعماء الى معسكر السلطان أبي سالم ، وعرض عليه خطته لخلع منصور ابن سليمان . وهنا يعتذر ابن خلدون عن تصرفه ، ويصرح له بأنه انحرف عن منصور "لما رأيت من اختلال أحواله ومصير الأمر الى السلطان" (١) . وسار أبو سالم في جموعه ، وابن خلدون في ركابه ، الى فاس ، ففر منصور بن سليمان عند مقدمه ، وجلس أبو سالم على عرش أبيه (في شعبان سنة ٧٦٠) وعين ابن خلدون كاتب السر والإنشاء ، وجعله موضع ثقته وعطفه . وينوه ابن خلدون بأنه نهج يومئذ في كتابة الرسائل نهجا جديدا ، إذ تحرر من قيود السجع وكان يومئذ قاعدة الكتابة ، وعدل عنه الى السهل المرسل ، ويقول لنا أيضا إن شاعريته تفتحت في هذه الفترة ، فنظم الكثير من الشعر الذي "يتوسط بين الإجادة والقصور" وأنشد السلطان كثيرا من القصائد في مختلف المناسبات ، وكان من أشهر وأبدع ما نظمته في ذلك الوقت ، قصيدة طويلة رفعها الى السلطان ليلة المولد النبوي (سنة ثلاث وستين) يعدد فيها مناقب النبي الكريم ومعجزاته ، ويمتدح السلطان ، وهذا مطلعها :

أسرفن في هجرى وفي تعذبي وأطن موقف غربي ونحبي
وأبين يوم البين موقف ساعة لوداع مشغوف الفؤاد كئيب
لله عهد الظاعنين وغادروا قلبي رهين صباية ووجيب
غربت ركائبهم ودمعى سافح فشرقت بعدهم بماء غروبي
ومنها :

(١) كتاب العبر - ج ٧ ص ٢٠٥

سائل به طامح العباب وقد سرى
تهديه شهب أسنة وعزائم
حتى انجلت ظلم الضلال بسعيه
تزحى بريح العزم ذات هبوب
يصد عن ليل الحادث المرهوب
وسط الهدى بفريقها المغلوب
ورفع الى السلطان يوم وفدت عليه هدية ملك السودان
(سنة ٧٦٢) وفيها الزرافة، قصيدة أخرى ينوه فيها بعهده ومآثره،
ويصف الزرافة بما يأتي :

ورقيمة الأعطاف حالية
وحشية الأنساب ما أنست
تسمو بجيد بالغ صعدا
طالت رؤوس الشامحات به
موشية بوشائح البرد
في موحش البيداء بالگرد
شرف الصروح بغير ما جهد
ولربما قصرت عن الوهد
وقد كانت هذه الفترة بالنسبة لابن خلدون، فيما يظهر، عهد
البيان والشاعرية، فاشتهر أمر نثره ونظمه في دوائر الأدب والشعر
بالمغرب والأندلس يومئذ . ويصف لنا ابن الخطيب نثره ورسائله
السلطانية بأنها "خلق بلاغة، ورياض فنون، ومعادن إبداع يفرغ
عنه يراعه الجري، شبيهة البداءات بالحواتم في نداوة الحروف
وقرب العهد بجرية المداد، ونفوذ أمر القريحة واسترسال الطبع"
ويقول عن نظمها إنه "نهض لهذا العهد قدما في ميدان الشعر
ونقدم باعتبار أساليبه، فانشال عليه جوه، وهان عليه صعبه، فأتى
منه بكل غريبة" (١) .

ونلاحظ أن شعر ابن خلدون تبدو عليه مسحة من التصوف

(١) ابن الخطيب، في ترجمته لابن خلدون في "الإحاطة في أخبار غرناطة"
ونقلها المقرئ في نفع الطيب (بولاق) ج ٤ ص ١٤ وما بعدها .

وأنة ينحو في كثير من قصائده منحى الشعراء الصوفيين في صوغ الغزل الروحي . وقد كان ابن خلدون على ما يظهر يحيش بنزعة صوفية ، ويبدو مما كتبه في المقدمة عن التصوف وعن تجرد النفس من الاعتبارات الدنيوية والسمو الى الملكوت الأعلى^(١) انه قد درس التصوف وخواصه دراسة لا بأس بها . ونحن نورد خلال حديثنا نماذج من نظم ابن خلدون مما دونه في "التعريف" أو ترجمته لنفسه . وأما رسائله السلطانية فلم يدون لنا شيئاً منها ، غير أنه دون بعض رسائله الخاصة التي تبادلها مع ابن الخطيب ، وفيها تبدو قوة بيانه ومقدرته في معالجة النثر المرسل^(٢) . على أنه يبدو مثل هذه القدرة في البيان والتعبير بالأخص في مقدمته ، وجميع تاريخه حسبنا نين بعد .

ولبت ابن خلدون في كتابة السر والإنشاء والمراسيم للسلطان أبي سالم زهاء عامين ، ثم ولاه "خطة المظالم" (القضاء) فأذاها بقوة وكفاية . بيد أن حظوته لدى السلطان ضعفت واضمحلت نفوذه ، وكانت المنافسات دائمة الاضطرام بينه وبين رجال الدولة . وكان الخطيب ابن مرزوق صديق السلطان وزميله في المنفى متمكناً من حظوته ، يستأثر لديه بكل نفوذ ورأى ، حتى أصبح هو المتسلط على شئون الدولة والقابض على كل سلطة ، يتصرف بالأمر والنهي طبق هواه ، فكان هذا الطغيان يسخط رجال الدولة وأولى الرأي ويفسد ما بينهم وبين السلطان . وكان

(١) المقدمة ص ٣٩٠ وما بعدها وص ٤٢٧ .

(٢) تراجع هذه الرسائل في كتاب العبر ، ج ٧ ص ٤٢٧ و ٤٣٤ .

ابن خادون ممن عمل ابن مرزوق على إضعاف حظوتهم ونفوذهم ، وكثرت منه الوقعة والسعاية في حقه غيرة منه ، وخشية من نفوذه ، وتمادى ابن مرزوق في طغيانه حتى انفجر بركان السخط عليه وعلى السلطان من كل ناحية ، وأجمع الزعماء والكبراء رأيهم على الخروج والثورة . وكان زعيمهم في ذلك الوزير عمر بن عبد الله صهر السلطان . وكان أبوه الوزير عبد الله بن علي من قبله متمكنا في دولة بني مرين بجاهه وواسع ثروته . فلما توفى سنة ستين عند ولاية السلطان أبي سالم تطلع الولد إلى تراث أبيه ، واستعان بابن مرزوق على تحقيق بغيته ، وزوجه السلطان بأخته ، وعينه كبير أمثائه وجعله موضع ثقته حيناً . ولكن استبداد ابن مرزوق بشئون الدولة كان يحفظه ويذكره سخطه ، وكان السلطان من جهة أخرى يشك في صلته بأمير تلمسان وأنه يأتمر معه به حتى هم بنكبته غير مرة ، فلما تجاوز ابن مرزوق في طغيانه كل حد ، واختمرت فكرة الثورة ، تفاهم عمر بن عبد الله مع قائد الجند ، ووثب بالقصر الملكي في غيبة السلطان واستولى على البلد الحديد (العاصمة الجديدة) ونادى بخلع أبي سالم وتولية أخيه تاشفين سلطانا مكانه ، واضطربت عندئذ نار الثورة في كل ناحية ونهبت الخزائن الملكية ، وحاول أبو سالم أن يهاجم الثوار لاسترداد عرشه ، ولكنه لما رأى تسرب أصدقائه من حوله إلى الظافر ، فر في جماعة من صحبه ، فطارده الوزير عمر وقبض عليه وأمر بقتله ، واستبد بالأمر واستأثر بكل سلطة ، وكان ذلك الانقلاب في أواخر سنة ٥٧٦٢ (١٣٦١ م)^(١) .

ماذا كان موقف ابن خلدون إزاء ذلك الانقلاب الجديد ؟
كان كما عهدناه دائماً إلى جانب الظافر ينضوى تحت لوائه دون
إحجام ولا تردد . فلما تم الأمر لعمر بن عبد الله أقره في وظائفه
وزاد في إقطاعه وورزقه . ولكن ابن خلدون لم ترضه هذه النتيجة .
فقد كان على قوله «يسمو بطغيان الشباب إلى أرفع مما كان فيه» .
وكانت له مع الوزير عمر منذ عهد السلطان أبي عنان صداقة قديمة ،
وكان يعتمد على هذه الصداقة في التمكن لدى الوزير ويرى لها
حقها عليه ، ويرجو أن تكون الفرصة قد سنحت لتحقيق أمانيه
في الظفر بمنصب الدولة العليا من حجابة أو وزارة . ولكن
الوزير عمر لم يحقق له أملاً في ذلك . ولعله كان يخشى بحق مما
تجيش به نفسه من المشاريع والخطط . فعندئذ غضب ابن خلدون
واستقال من وظائفه ، واستاء منه الوزير وأعرض عنه وتكره له ؛
فتوجس ابن خلدون شراً ، واستأذن في السفر إلى بلده تونس فمنعه
الوزير من ذلك خشية أن يمر في طريقه بعدوه أبي حمو أمير
تلمسان التي استرجعها بنو عبد الواد يومئذ ، فاستغاث ابن خلدون
بمسعود بن ماسي زميل الوزير عمر وصهره فأغاثه وما زال بعمر ،
حتى أذن له في السفر بشرط أن يجانب تلمسان وألا يذهب إليها
بأى حال ومن أى طريق . فاختر ابن خلدون الرحلة إلى
الأندلس . وهنا يحدثنا ابن خلدون لأول مرة عن زوجه وولده ،
فيقول لنا إنه صرفهم إلى أخوالهم في قسنطينة . وإذا فقد كان
ابن خلدون يومئذ متزوجاً وكان له أولاد . ولم يقل لنا من قبل
إنه تزوج ، ولا نعرف تاريخ زواجه بالتحقيق . غير أننا نعتقد أن

هذا الزواج كان في سنة ٥٧٥٤ هـ ، أعنى قبل ذلك بعشرة أعوام ،
في الوقت الذي كان يتجول فيه في المغرب الأوسط على أثر مغادرته
لتونس سنة ٥٧٥٣ هـ ، وكان عندئذ يقيم بجاية على مقربة من قسنطينة ،
وفق ما أسلفنا . وسرى أن ابن خلدون يتبع منذ الآن أسرته بالذكر ،
فيشير إلى تنقلاتها معه في مختلف المواطن ، بيد أنه لا يقدم إلينا
عنها أو عن ولده أو حياته المنزلية أى تفصيل آخر .

الفصل الثالث

رحلة الأندلس

محمد بن الأحمر ملك غرناطة ووزيره ابن الخطيب . نكبة ابن الأحمر ووفوده مع وزيره الى بلاط فاس . قصيدة ابن الخطيب في استنهاض ملك المغرب لنصرة ملوكه . ابن الخطيب وابن خلدون . استرداد محمد ابن الأحمر لعرشه ورده ابن الخطيب الى وظائفه . سفر ابن خلدون الى غرناطة . توثق الصلة بينه وبين ابن الأحمر . إرساله سفيرا لملك قشتالة . رواية ابن خلدون عن زيارته لإشبيلية موطن أجداده . فتور العلاقات بينه وبين ابن الخطيب . مغادرته للأندلس .

وكان ملك غرناطة (الأندلس) في ذلك الحين محمد بن يوسف ابن اسماعيل بن الأحمر النصرى . ولى الملك عقب مقتل أبيه السلطان يوسف أبي الحجاج سنة ٥٧٥٥ (١٣٥٤ م) . وكان حدانا ضعيفا فاستبد حاجبه أبو النعيم رضوان بشئون الدولة ، وكان من وزرائه لسان الدين محمد بن الخطيب أشهر كتاب الأندلس وشعرائها يومئذ ، وكان وزيرا لأبيه من قبل . وكان السلطان أبو عنان قد قبض على أخيه السلطان أبي سالم وباقي أخوته ونفاهم إلى الأندلس كما قدمنا ، فأكرم السلطان محمد مشواهم ، وأحكمت بينه وبين السلطان أبي سالم صداقة متينة . فلما توفى السلطان أبو عنان ، واسترد أبو سالم عرشه في شعبان سنة ستين ، كانت الصلة بين الأميرين أوثق ما يكون . بيد أنه لم تمض أسابيع قلائل على جلوس أبي سالم ، حتى نكب صديقه السلطان محمد وفقد

عرشه في أواخر رمضان سنة ستين . وكان أخوه اسماعيل يؤازره جماعة من الزعماء في مقدمتهم صهر له من أبناء عمومته يدعى الرئيس عبد الله . فكان أبو عبد الله يدعو لإسماعيل سرا ، ويتربص الفرص للوثوب بمحمد . فانتهاز فرصة غيابه ذات يوم عن غرناطة ، واستولى على حصن الحمراء في جمع من أتباعه ، وقتل الحاجب رضوان ، ونادى بإسماعيل أنحي السلطان ملكا مكانه . ففر محمد إلى وادي آش ، واعتقل وزيره ابن الخطيب^(١) ، وعلم أبو سالم بحنة صديقه ، ورعى له عهد الصداقة والوفاء فأرسل إلى الأندلس سفيرا يسعى لدى حكومة غرناطة في إجازة السلطان المخلوع ووزيره المعتقل إلى المغرب . فنجح السفير في مهمته ، وعاد إلى المغرب صحبة السلطان محمد والوزير ابن الخطيب (المحرم سنة

(١) لسان الدين بن الخطيب ، هو محمد بن عبد الله بن سعيد من أعظم كتّاب الأندلس وشعرائها في القرن الثامن الهجري . ولد بلوشة من أعمال غرناطة سنة ٥٧١٣ هـ (١٣١٣ م) ودرس دراسة حسنة ، وبرز في النظم والإنشاء . ودرس الطب والفلسفة ، وخدم سلاطين غرناطة منذ حداثته فتولى ديوان الكتابة ثم الوزارة للسلطان أبي الحجاج ثم تولى الوزارة لولده محمد ، وشاطره محنته ونفيه ، فلما استرد عرشه عاد إلى سابق مراتبه ، واستبد بشئون الدولة حينئذ فلما أخذ نجمه في الأفول ، وتفوضه في الضعف ، نزع إلى المغرب الأقصى واستنزل بلواء سلطانهما ، ولكن خصومه سعوا إلى هلاكه ، وما زالوا به حتى أتتهم بالزندقة والكفر فقبض عليه وأعدم وأحرق جثته سنة ٥٧٧٦ هـ (١٣٧٤ م) وله ثبت حافل من الآثار أشهرها : الإحاطة في أخبار غرناطة . تاريخ الدولة النصرانية . ريحانة الكتاب . السحر والشعر . الكتيبة الكامنة في أدباء المائة الثامنة وغيرها . وله رسائل وقصائد لا تحصى . وقد أفرده المقرئ صاحب نفع الطيب من مؤلفه مجلدين كبيرين ألم فيهما بكثير من أخباره وآثاره .

(١) إحدى وستين) واستقبلهما أبو سالم في فاس أجمل استقبال ،
واحتفل بقدميهما في يوم مشهود ، وأنشده ابن الخطيب يومئذ
قصيدة رائعة ، يدعو فيها لنصرة سلطانه وغيوثة ، هذا مطلعها :
سلا هل لديها من مخبرة ذكر وهل أعشب الوادي ونم به الزهر
وهل باكر الوسمى دارا على اللوى عفت آيها إلا التوهم والذكر
بلادى التي عاطيت مشمولة الهوى بأكافها والعيش فينان مخضر
وجوى الذى ربي جناحى وكره فيها أنا ذا مالى جناح ولا وكر

* * *

ومنها :

قصدناك ياخير الملوك على النوى لتنصفنا مما جنى عبدك الدهر
كففتنا بك الأيام عن غلوائها وقد رأينا منها التعسف والكبر
وعذنا بذلك المجد فانصرم الردى ولدنا بذلك العزم فانهمز الشر
ولما أتينا البحر نهرب موجه ذكرنا نذاك الغمر فاحتقر البحر

* * *

ومنها :

وأنت الذى تدعى اذا دهم الردى وأنت الذى ترجى اذا أخلف القطر
ومثلك من يرعى الدخيل ومن دعا بيالميرين جاءه العز والنصر
وخذ يا إمام الحق بالحق ثاره ففى ضمن ما تأتى به العز والأجر^(٢)

وكان ابن خلدون من شهود ذلك الحفل . ويقول لنا إن ابن

(١) راجع فى تفصيل هذه الحوادث — تاريخ الدولة النصرانية لابن الخطيب

ص ١٠٨ وما بعدها ، وابن خلدون فى كتاب العبر — ج ٧ ص ٣٠٦ وما بعدها .

(٢) والقصيدة طويلة فى نحو ثمانين بيتا وقد ورد نصها كاملا فى الكتابين

الخطيب أبكى سامعيه تأثراً وأسى . ويقول لنا ابن الخطيب نفسه إن القوم كانوا يرتجفون تأثراً لأقواله . وكان هذا أول لقاء بين هذين الرجلين العظيمين اللذين تجمع بينهما مشابهاة عديدة ، فقد كان كلاهما أستاذ عصره وقطره في التفكير والكتابة ، وكان كلاهما شخصية بارزة في حوادث عصره يتصل منها بأوثق صلة ، ويخوض غمارها متقلبا بين الظفر والمحنة ، وكان كلاهما وزير ومستبد ومستشار لأمرء عصره ، ومعرض لهم أو عليهم . كانت ابن خلدون يشغل في دول المغرب نفس المركز الذي كان يشغله ابن الخطيب في الأندلس ، وقد استأثر في المغرب بزعامة التفكير والكتابة التي كان يستأثر بها ابن الخطيب في الأندلس . وقد جمعت بين الرجلين أواصر الحب والصدقة ، وفرقت بينهما عوامل الغيرة والتنافس ، وكان كل منهما رغم ذلك يحترم صاحبه ويحمله ، ويكبر مواهبه وخلالله . وقد ترجم كل منهما الآخر ، وذكره بما ينم عن خالص التقدير والإجلال ، فيقول لنا ابن خلدون في ترجمته لابن الخطيب إنه « بلغ في الشعر والترسل حيث لا يجارى فيهما ، وملاً الدولة بمدايحه ، وانتشرت في الآفاق قدماه » ثم ينوه بعد ذلك بروعة رسائله السلطانية ، وبعدهمته في الإدارة والحكم (١) ، ويصف ابن الخطيب ، ابن خلدون في ترجمته إياه بأنه : « جم الفضائل ، باهر الحصل ، رفيع القدر ، ظاهر الحياء ، أصيل

(١) وردت هذه الترجمة خلال حديث ابن خلدون عن حوادث الأندلس والمغرب -- في كتاب العبرج ٧ ص ٣٣٢ وما بعدها -- وراجع حديث ابن خلدون عن مصرع ابن الخطيب ج ٧ ص ٣٤١ .

المجد، وقور المجلس، على الهمة، عزوف عن الضيم، صعب
المقادة، قوى الجأش، طامح لقن الرياسة، خاضب للحظ،
متقدم في عدة فنون عقلية ونقلية، متعدد المزاج، سديد البحث
كثير الحفظ، صحيح التصور...» (١) ويبدى كلا الرجلين فيما
تبادلا من رسائل، لصاحبه مثل هذا التقدير والإجلال.
وأقام السلطان محمد في بلاط فاس حيناً ولم يدخر أبو سالم
وسعا في إكرامه. وتجول ابن الخطيب حيناً بالمغرب، واستقر
يسلاً. وتوثقت بين ابن خلدون وهو يومئذ من أكابر رجال
الدولة وبين الأمير المخلوع روابط المحبة والصدقة، وكان يقوم
بخدمته وقضاء مطالبه، فلما سافر الأمير إلى الأندلس ليحاول
استرجاع ملكه تولى ابن خلدون أمر أسرته، ورعاية شؤونها
ومطالبها، وتوفير راحتها. وعقدت أيضا بينه وبين ابن الخطيب
أواصر صداقة نمت وتوثقت فيما بعد. وحاول السلطان محمد أن
يعمل لاسترداد ملكه بمعاونة بيدرو القاسي (بتره أو بطره) ملك
قشتالة، تنفيذاً لاتفاق عقد بينهما، ولكن ملك قشتالة حينما
سمع بمصرع السلطان أبي سالم، أبدى فتورا في التنفيذ، فاستغاث
محمد عندئذ بالوزير عمر بن عبد الله المتغلب على المغرب، ووسط
لديه ابن خلدون، وكانت له يومئذ لديه حظوة، في أن يقطعه
إحدى مدن الأندلس المغربية، ليتخذها قاعدة للعمل والتأهب.
فأقطعه رندة وأعمالها. وما زال يدبر أمره، حتى استعاد ملكه

(١) وردت هذه الترجمة في كتاب «الإحاطة في أخبار غرناطة». ونقلها

المقرئ في نفح الطيب (بولاق) ج ٤ ص ٤١٤ وما بعدها.

من أيدي خصومه ، ودخل غرناطة ظافرا في جمادى الآخرة سنة ٧٦٣ واستتب له الأمر ، واستقدم اليه أسرته من فاس واستدعى وزيره ابن الخطيب وردّه الى سابق مراتبه ونفوذّه . ثم وقع الجفاء بين ابن خلدون وبين صديقه الوزير عمر ، فاعتزم الرحلة إلى الأندلس كما قدمنا . وإذ كانت بينه وبين سلطان الأندلس ووزيرها صداقة حميمة ، وكان له عليهما أياد لاتنسى ، فإننا نستطيع أن نتصور العوامل التي دفعته إلى تلك الرحلة ، والآمال التي كان يعلقها عليها . فقصد إلى سبتة في أوائل سنة ٧٦٤ هـ ، ثم جاز منها إلى الأندلس ، وكتب إلى السلطان وابن الخطيب بمقدمه . ولما أشرف على مرج غرناطة تلقى رسالة رقيقة من ابن الخطيب يهنئه فيها بالقدوم . ووصل إلى غرناطة في الثامن من ربيع الأول ، فاهتم السلطان لمقدمه ، واحتفى بلقائه وأكرم مثواه ، ونظمه في أهل مجلسه ، وقربه اليه ، وآثره بصحبته وأسماره . وعامله ابن الخطيب بمنتهى الإكرام والرعاية . وفي العام التالي ، أعنى سنة خمس وستين (١٣٦٣ م) ، أوفده السلطان سفيرا عنه الى بيدرو القاسى (بتره أو بطرة) ملك قشتالة^(١) ، ومعه هدية نفيسة ، لإتمام عقد الصلح وتنظيم العلاقات بينهما . فقصد ابن خلدون اليه في إشبيلية حيث كان يقيم يومئذ ، وتلقاه ملك قشتالة بالترحيب والإكرام . وهنا يقول لنا ابن خلدون ، إنه

(١) هو بيدرو أو بطرس القاسى ملك قشتالة ولد سنة ١٣٣٤ وتوفى

سنة ١٣٦٩ ، وتولى العرش بعد وفاة أبيه الفونسو الحادى عشر سنة ١٣٥٠ ، وقد اشتهر بصرامته وطفانيته وبطشه .

عين آثار أسرته باشبيلية وقد كانت كما رأينا منزل بني خلدون
وفيها سطع نجمهم حيناً ، وإن ملك قشتالة وقف على تاريخ أسرته ،
وعترف به وبمكانته طيب يهودى فى بلاطه يدعى ابراهيم بن زرور ،
وكان قد تعرف به فى مجلس السلطان أبى عنان من قبل حين
استدعاه لمعالجته ، ثم يقول لنا إن ملك قشتالة عرض عليه عندئذ
ان يبقى فى خدمته ، وأن يسعى لدى زعماء دولته ليرد اليه تراث
أسرته بإشبيلية ولكنه أبى . ولا ريب أن ابن خلدون كان أذكى
من أن يعتقد أن ملك قشتالة كان جاداً فى عرضه . وأدى
ابن خلدون مهمته بنجاح ، ووهبه ملك قشتالة « بغلة فارهة
بمركب ثقيل ولحام ذهبيين » فأهداهما إلى السلطان ، وأقطعه
السلطان عند عوده قرية البيرة بمرج غرناطة ، فزاد رزقه
واتسعت أحواله ، واستأذن السلطان فى استقدام أسرته من
قسطنطينة ، فبعث السلطان فى استقدامها . وعاش مدى أشهر آخر
مع أسرته فى رغد وطمانينة . ولكنه لم يلبث أن شعر بانقباض
السلطان عنه ، وشعر بأثر ابن الخطيب وسعايته فى ذلك من فتوره
وإعراضه ، وكان الوزير يئشى بلا ريب منافسته ومشاريعه .
وأدرك ابن خلدون أنه لم يبق للبقاء موضع ، ووصلته فى الوقت
نفسه رسالة من صديقه الأمير أبى عبد الله محمد أمير بجاية بأنه استرد
ملكه ، وأنه يرغب فى قدومه ، فقرر مغادرة الأندلس عندئذ
واستأذن السلطان فاذن له ، وزوده بأعطيته ، وشيعة معززا مكرما ،
فغادر الأندلس ، وركب البحر من ألمرية إلى بجاية فى منتصف
سنة ٧٦٦ هـ (١٣٦٤ م) .

الفصل الرابع

ذروة المغامرة

أبو عبد الله محمد أمير بجاية . استعادته للثrone واستدعاؤه لابن خلدون . تولى ابن خلدون الحجاية المطلقة فى بجاية . استيلاء أبو العباس أمير قسنطينة على بجاية ومصراع الأمير محمد . انضواء ابن خلدون تحت نواء الظافر . الوحشة بينه وبين أبي العباس وفرارده الى بسكرة . المعزى الأخلاقى لهذه الحوادث . استدعاء أبو حو سلطان تلمسان لابن خلدون . اعتذاره وقيامه بالدعوة إليه . السلطان عبد العزيز المرينى يفتح تلمسان . اتصال ابن خلدون به وقيامه بدعوته . قدوم ابن الخطيب الى المغرب . سفر ابن خلدون الى فاس . تطور الحوادث فى المغرب وقيام السلطان أبو العباس احمد . الدسائس حول ابن خلدون . سفره الى الأندلس . المطالبة بتسليمه .

مصراع ابن الخطيب

لم ينس أمير بجاية إبان ظفره صديقه أيام محنته ، ولم ينس أن هذا الصديق قد عانى من أجله عذاب الأسر والسجن . فكتب إليه يستدعيه ليشاركه فى أمره وليحقق له الوعد الذى قطع على نفسه . وكانت بجاية من قبل من أعمال مملكة إفريقية (تونس) خاضعة للدولة الحفصية . فلما غلب على تونس الأمير أبو يحيى الحمياني سنة ٧١١ هـ كما قدمنا ، أقطع الثغور لأولاده فتولى بجاية ابنه الأمير أبو زكريا ولبث فى حكمها حتى وفاته سنة ٧٤٦ هـ . وخلفه فى حكمها ولده الأكبر الأمير أبو عبد الله محمد . ولما زحف السلطان أبو الحسن على إفريقية خلع الأمير محمدا فبعن خلع من أمراء الثغور ونفى إلى المغرب . ولما ثار السلطان أبى عنان على أبيه أثناء غيبته

في إفريقية ردّ الأمراء المخلوعين وفيهم الأمير محمد إلى ثغورهم لكي يعترضوا أباه عند العودة . فاستقر محمد حيناً آخر في حكم بجاية . ثم توفي السلطان أبو الحسن ، وتم الأمر لأبي عنان . فانتزع بجايه من صاحبها كرة أخرى وأرغمه على النزول عنها إليه ونفاه إلى المغرب ، فأقام هنالك حتى قدم ابن خلدون على السلطان أبي عنان ودخل في خدمته . وعندئذ توثقت أواصر الصداقة بين ابن خلدون والأمير المخلوع لما كان بين أسرتيهما من سابق المودة ؛ واتهم ابن خلدون بالتآمر مع صديقه ، وبأنه يدبر له سبل الفرار لكي يسترد إمارته ثم يوليه حجابته ، واعتقل مدى عامين حتى وفاة السلطان أبي عنان . فلما تولى السلطان أبو سالم سعى ابن خلدون لإطلاق الأمير محمد وباقي الأمراء المنفيين إلى ثغورهم ، وكتب له الأمير محمد بخطه عهداً بأن يوليه حجابته متى استرد سلطانه . ثم سار الأمير إلى بجاية وما زال حتى انتزعها من يد خصومه ومنافسيه في سنة ٧٦٥ ، واستوزر يحيى أخا ابن خلدون الأصغر ، وبعث إلى ابن خلدون وهو بالأندلس يستدعيه ليوليه حجابته وفاء بعهده . فاستجاب إليه وكان قد اعترم الرحيل من الأندلس كما قدمنا . ووصل إلى بجاية في منتصف سنة ست وستين . فاستقبله أمير بجاية وأهلها أجمل استقبال . ويصف لنا ابن خلدون يوم مقدمه في تلك العبارة الرنانة : « فاحتفل السلطان بقدمي ، وأركب للقائي ، وتهافت أهل البلد على من كل أوب يسحون أعطافي ، ويقبلون يدي وكان يوماً مشهوداً »

وتولى ابن خلدون في الحال منصب الحاجب لسلطان بجاية ،

وقد كانت الحجابة يومئذ في الدول المغربية حسب تعريفه هي :
« الاستقلال بالدولة والوساطة بين السلطان وأهل مملكته لا يشاركه
في ذلك أحد » . واستبد بشئون الدولة ، ومضى يدبر الأمور بعزم
ويعالج الفتن القائمة بحزم وذكاء ، ويتجول بين القبائل الجبلية
يستخلص منها الجباية قسرا بقوة دهائه ونفوذه . ولكن الحصومة
ما لبثت أن نشبت بين أمير بجاية وبين ابن عمه السلطان أبي العباس
صاحب قسنطينة . وكان أبو العباس يتطاع الى امتلاك بجاية
ويشير على أميرها القبائل والبطون المجاورة . ويقول لنا ابن خلدون
أيضا إن الأمير محمدا لم يحسن السيرة في أهل بجاية بل كان يرهقهم
ويشدد الوطأة عليهم حتى انحرفوا عنه واعتزموا الخروج عن طاعته
لجاجة لتحريض أبي العباس . وفي سنة سبع وستين قصد
أبو العباس في جموعه الى بجاية ، وقاتل الأمير محمدا بظاهرها
وهزمه وقتله ، ودخل بجاية ظافرا . وكان ابن خلدون أثناء ذلك
يلزم القصر في بجاية ، فلما كانت الدائرة على محمد خاطبه بعض الزعماء
في تولى الأمر والدعوة لأحد أبناء السلطان ، فأبى وخرج كعادته
الى تحية الظافر والانضواء تحت لوائه ، وسلم ابن خلدون المدينة
الى أبي العباس ، فأكرمه وأقره حيناً في وظيفته ، ولكن ابن خلدون
شعر عما قليل بانحرافه فانصرف بإذنه الى أحد الأحياء القريبة .
ثم رأى أبو العباس بعد حين أن يقبض عليه ، ففر ابن خلدون الى
بسكرة فقبض أبو العباس على أخيه الأصغر يحيى ، واعتقله ببونه ،
وقتش بيوتهم وصادر أموالهم .

وهكذا اختتمت تلك المغامرة التي كان ابن خلدون مدبرها

منذ البداية ، وكانت من نفاتات أطاعه ؛ وكانت كسابقاتها دليلاً على ما تجيش به نفسه من الأثرة ، ونكران الصنيعة ، وانتهاز القرص السانحة مهما كان انتهازها ينافي الوفاء والولاء والعرفان . كان ابن خلدون ينطق في خططه وأعماله عن احتقار عميق للعاطفة ، والأخلاق المرعية ؛ وكان يسيره مثل ذلك الروح القوي الذي أعجب به ميكافيللي فيما بعد ، وتصوره في أميره الأمثل ؛ ذلك الروح الجريء الثابت الذي يقتحم كل ضعف انساني ، ويميل توأ الى الغاية المرغوبة بأى الوسائل والخطط . ويحاول ابن خلدون أن يعرب عن ندمه وأسفه لتطور الحوادث على هذا النحو ، فيقول لنا في مكان آخر في حديثه عن أمير بجاية التعس : « فلما استدعاني هذا الأمير أبو عبدالله بادرته الى امتثاله ، ولو شاء ربك ما فعلوه ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير» (١) . واجكن الذي لا ريب فيه هو أن ابن خلدون كان يجوز في حوادث بجاية مغامرة من صنعه ، ويحاول اجتناء ثمار فرصة ترقبها وهياها منذ بعيد ؛ ولا ريب أن مقتل حليفه وسيده لم يضره ولم يحزنه ، وقد كان معقد آماله أن ينضوى تحت لواء الظافر ، لولا أن أنكره الظافر ورغب عن خدمته تلك المرة .

وتحول ابن خلدون عندئذ الى بسكرة لصداقة بينه وبين أميرها . ولبث هنالك يرقب الحوادث . وكان الأمير أبو حمو موسى ابن عبد الرحمن سلطان تلمسان صهراً لأمر بجاية المقتول . وكان يطمح الى فتح بجاية . فلما بلغت مقتل صهره بعث قواته الى

(١) كتاب العبر — ج ٦ ص ٣٧٧ .

بجاية تحاول أخذها ، ولكنها هزمت هزيمة شنيعة ، وكتب أبو حمو على أثر ذلك الى ابن خلدون يستدعيه من بسكرة ليوليه حجابته لما كان يعلمه من نفوذ في بجاية وما حولها من القبائل ، وأرسل اليه بالفعل مرسوم الحجابة ، وكتب اليه يرجوه في السعي لبث دعوته واستمالة القبائل اليه . فاعتذر ابن خلدون عن قبول الوظيفة تلك المرة ، وأرسل أخاه يحيى ، وكان قد أطلق سراحه الى سلطان تلمسان نائبا عنه ، ولكنه استجاب الى بث الدعوة بين القبائل وتحويلها من جانب أبي العباس الى جانب خصمه أبي حمو . ويقول لنا ابن خلدون إن نفسه كانت قد سمّت يومئذ مخاطر المغامرة وأهوال الوظيفة ، وزهدت في غواية الرتب ، واشتأقت الى الدرس بعد أن هجرته طويلا ، فعول على استئناف الدرس والقراءة ، والإعراض عن ميدان السياسة والخدمات السلطانية . ولكن سنرى أنه يعود الى ميدان الحوادث وخوض المغامرات السلطانية مرارا أخرى .

وفي ذلك الحين وصلته رسائل من صديقه ابن الخطيب يعرب فيها عن شوقه وحبه ، ويحدثه بأخبار الأندلس ، ثم عن جهوده الأدبية وكتبه الجديدة . فرد عليه ابن خلدون ، يعرب عن مثل شوقه وحبه ، ويحدثه بأخباره ومحتفه في بجاية ، ثم عن أخبار المغرب وأخبار مصر كما وصلت اليه (١) . ويبدو في هذه الرسائل ما يجمله كل من الرجلين للآخر من آيات التقدير والاحلال .

ولبث ابن خلدون في بسكرة يبث الدعوة لأبي حمو ويحشد

(١) راجع هذه الرسائل في كتاب العبر— ج ٧ ص ٤٢١ — ٤٣٠ .

القبائل في جانبه ، ويؤلبها على أبي العباس ، ويعمل من جهة أخرى على عقد أواصر التحالف بين أبي حمو وأبي إسحاق سلطان تونس . وكان بينه وبين أخيه أبي العباس جفاء وخصومة . وزادت متاعب أبي حمو بنحروج ابن عمه أبي زيان عليه ، فضاعف ابن خلدون همته في استمالة القبائل اليه ، ثم خرج مع صاحب بسكرة وباقي الزعماء الذين استماهم في قواتهم لنصرة أبي حمو ، وكان يتها لمحاربة خصومه (سنة ٧٧١ هـ) ولكن أباحمو هزم أمام خصومه مرة أخرى وارتد ابن خلدون الى بسكرة ، يستأنف جهوده لحشد القبائل الى جانب أبي حمو ، وأحكام الصلوة بينه وبين سلطان تونس .

وفي العام التالي ، سار ابن خلدون في وفد من الرؤساء لزيارة أبي حمو والتفاهم معه على تدبير الخطة اللازمة . فلقية بالجزائر ، وبقي لديه مدى حين ، وأنشده يوم الفطر قصيدة تهنئة يقول فيها :

هذي الديار فحين صباحا	وقف المطايا بينهن طلاحا
لا تسأل الأطلال ان لم تروها	عبرات عينك واكفا ممتاحا
فلقد أخذن على جفونك موثقا	أن لا يرين مع البعاد شحاحا

ولكن ولاء ابن خلدون لأمير تلمسان لم يطل أمده ، وسرعان ما تحوّل عنه الى عدوه ، يؤلب الجموع عليه بعد أن كان يؤلبها لتأييده . ذلك أن صاحب المغرب الأقصى السلطان عبد العزيز ابن الحسن خرج في جيوشه يومئذ يزعم غزو تلمسان وانتزاعها ككرة أخرى من قبضة بني عبد الواد . وكان الوزير عمر بن عبد الله قد استبد بشئون المغرب منذ مصرع السلطان أبي سالم سنة ٧٦٢ هـ

كما قدمنا ، وأخذ يولى العرش ملوكا وأحداثا ضعافا من بني مرين
ففى سنة ٥٧٦٨م ولى السلطان عبدالعزیز بن السلطان أبى الحسن ،
وكان أسيرا فى اعتقاله ، وشدد علیه الحجر والاستبداد كعادته ، فأنف
السلطان لذلك ، ووثب بالوزير عمر فقتله غيلة وفتك بذويه ،
واسترد السلطة كاملة ، ثم خرج بجيوشه للغزو فى تخوم المغرب
الأوسط يقصد فتح تلمسان والقضاء على سلطة بنى عبد الواد
فى المغرب الأوسط ، وكان ابن خلدون يقيم عندئذ فى ضيافة
أبى حمو . فلما بلغه مقدم ملك المغرب ، ورأى الطريق الى
بسكرة قد سدت فى وجهه ، وسرت الفتنة الى كل ناحية ، خشى
العاقبة على نفسه ، واستأذن أبى حمو فى السفر الى الأندلس ، فأذن
له وبعث معه برسالة الى ملك غرناطة ، وأسرع ابن خلدون الى
مرسى هنين ليركب البحر منها ، ولكن ملك المغرب أشرف عندئذ
بجيوشه على تلمسان فغادرها أبو حمو الى الصحراء ليحشد جموعه
وأنصاره . ونمى الى ملك المغرب أن ابن خلدون فى هنين وأنه
يحمل ودائع لأبى حمو ، فأرسل فى طلبه سرية من الجنده ، فدهمته
فى المرسى وفتشته فلم تجد معه شيئا ، وحملته الى السلطان فى ظاهر
تلمسان ، فحقق فى شأنه وعنفه على أنسلاخه عن بنى مرين وانصوائه
تحت لواء أعدائهم ، فاعتذر ابن خلدون بما كان بينه وبين الوزير
عمر ، وشفع له أكابر الدولة الحاضرين ، ونوهوا بسابق خدماته
لبنى مرين ، ووعد السلطان بمعاونته على أخذ بجاية حين كاشفه
برغبته فى فتحها ، فارتاح السلطان لذلك وأطلق سراحه لليلة من
اعتقاله ، فارتد الى مكان فى الصحراء يعرف برباط أبى مدين

ونزل به حيناً يشتغل في عزلته بالقرلة والدرس .

ولما استولى السلطان عبد العزيز على تلمسان بعدئذ بقليل (سنة ٧٧٢ هـ) استدعى ابن خلدون وعهد إليه بأن يبيث دعوته بين القبائل وأن يحملهم على مناصرته ومقاتلة عدوه أبي حمو، فقبل ابن خلدون المهمة وأخذ يسعى لحشد القبائل واستمالتها لمحاربة صديقه بالأمس، وانتظم في سلك الحملة التي بعثها السلطان لمطاردة أبي حمو وأخذ يعمل تباعاً على سلخ القبائل عن أبي حمو بما كان له من النفوذ والدهاء بين الرؤساء والشيوخ؛ ولبثت جنود السلطان تقتفي أثر أبي حمو حتى دهمته في أعماق الصحراء ومزقت معسكره، وفر أبو حمو وآله تحت جناح الظلام، وتخلف ابن خلدون بعدئذ لدى أسرته أياماً في بسكرة، ثم قصد إلى السلطان عبد العزيز في تلمسان فأحسن استقباله وأكرم مثواه؛ وأرسله ليعمل على تهدئة بعض الأحياء الخارجة في المغرب الأوسط وردها إلى الطاعة؛ فصعد بالأمر، ولكنه لم ينجح في مهمته في تلك المرة، فعاد إلى بسكرة واكتفى بمراسلة السلطان. وهنا وصلته الأنباء بمقدم صديقه ابن الخطيب على السلطان في تلمسان، وقد غادر الأندلس فراراً من بطش سلطان غرناطة بعد ما فسدت بينهما العلائق؛ فاستقبله السلطان عبد العزيز أجمل استقبال وأغدق عليه عطفه وعطاءه . وكتب ابن الخطيب إلى صديقه في بسكرة يقص عليه خبره، ويعتب عليه فيما كان منه في حقه حين مقامه بالأندلس؛ فرد عليه ابن خلدون برسالة مؤثرة يؤكد فيها تقديره وحبه لصديقه، ويدفع

عن نفسه مظنة الفتور والوقية ويهنته بنجاته (١) .

ولبت ابن خلدون مقبلا في بسكرة، والمغرب الأوسط يضطرم بالثورة في جميع نواحيه . فلما حشد السلطان حملة لمحاربة الثوار بقيادة وزيره أبي بكر بن غازي، عهد الى ابن خلدون باستمالة القبائل كره أخرى، فأدى ابن خلدون المهمة، وقصد الى الوزير بمكانه بالصحراء في شيوخ القبائل الموالية، ونظم معه برنامج العمل، ثم عاد الى بسكرة، ولكن مقامه بها لم يدم طويلا لأنه آنس في نفس أميرها تغيرا ونزوعا الى الثورة، فغادرها مع أسرته ليلحق بالسلطان في تلمسان، ولكنه ما كان يصل الى منتصف الطريق حتى بلغته الأنباء بوفاة السلطان وتولية ابنه السعيد مكانه في كفالة الوزير ابن غازي وقبول البلاط كله الى فاس، (سنة ٧٧٤ هـ)، فعول عندئذ على اللحاق بفاس واخترق الصحراء مع بعض البطانة والجنود . واعترضت القافلة أثناء مسيرها عصابة من الأشقياء بتحريض أبي حمو الذي عاد فاستولى على تلمسان على أثر وفاة السلطان، ونهبت متاع المسافرين، ولم ينج ابن خلدون وأسرته من الأسر إلا بصعوبة، ووصل أخيرا الى فاس في حال سيئة، فأكرمته الوزارة ابن غازي وعمره برعايته، وأقام في فاس موقرا مبعولا .

وفي ذلك الحين ساءت العلاقات بين بلاط فاس وبلاط غرناطة . وكان الوزير ابن الخطيب قد التجأ كما قدمنا الى بني مرين فطلب سلطان الأندلس محمد بن الأحمر الى بلاط فاس

إبعاده وتشريده فأبى الوزير ابن غازى ، وأطلق بعض اللاجئين من أسرة بنى الأحمر لمناوأة حكومة الأندلس ؛ وأطلق ابن الأحمر زعيمين من زعماء المغرب كانا بالأندلس وهما عبد الرحمن بن يفلوس من أمراء بنى مرين والوزير مسعود بن ماسى لمناوأة حكومة فاس ، وبعثهما فى أسطوله الى شواطئ المغرب وحاصر جبل طارق وهى يومئذ من أملاك بنى مرين . وبعث الوزير ابن غازى جيشا لمقاتلة الخوارج بقيادة ابن عمه محمد بن عثمان . فاستماله ابن الأحمر وحرضه على الخروج ، فأعلن الثورة ودعا للأمير أحمد ابن السلطان أبى سالم وكان يومئذ معتقلا بطنجة ، وزحف لقتال ابن غازى . ونشبت بين الفريقين معارك طاحنة بقرب مكاسة ، وارتد ابن غازى الى فاس وتحصن بها . فحاصره الخوارج حتى أذعن وخلع الملك السعيد . واستولى السلطان أبو العباس أحمد على فاس (سنة ٧٧٦ هـ) وعين ابن عثمان لحجابه . واستولى الأمير عبد الرحمن على شمال المغرب تنفيذا للاتفاق المعقود .

وكان ابن خلدون أثناء هذه الحوادث مقيا بفاس ؛ فلما وقع الانقلاب ، وشى بعضهم فى حقه للحكومة الجديدة ، فقبض عليه حينئذ ثم أفرج عنه بسعى صديقه الأمير عبد الرحمن سلطان الشمال . وعندئذ أزمع الرحلة الى الأندلس بعد أغلقت فى وجهه قصور المغرب كلها . ويقول لنا ابن خلدون انه أراد اللحاق بالأندلس طلبا للاستقرار والدرس . والظاهر أن فكرة الإنقطاع الى البحث والتأليف كانت قد اختمرت فى ذهنه يومئذ ، وقد رأيناها تساوره مرارا منذ اضطربت شئون السياسة واكفهر أفق المغرب ، فجاز

البحر الى الأندلس في ربيع سنة ٧٧٦ هـ تاركا أسرته بفاس . ولقى في طريقه وزير ابن الأحمر أبا عبدالله بن زمرك ذاهبا الى بلاط فاس للتهنئة والمفاوضة ، فرجاه أن يسعى لإطلاق أسرته ولحاقها به . ولكن ابن خلدون لم يحسب حسابا لدسائس خصومه ، ولم يدر بخلده أنه سيفقد موضعا للمساومة في مفاوضات شائنة . ذلك أن بلاط فاس توجس شرا من استقراره بالأندلس وأبى أن تلحق به أسرته لما نمي اليه من أن ابن خلدون على صلة مع الأمير عبدالرحمن وأنه يحرضه على غزو المغرب . وقد جاء ابن زمرك من جهة أخرى الى فاس ليسعى في تنفيذ عهد شائن قطعه سلطان المغرب الحديد على نفسه لابن الأحمر ضمن شروط التحالف بينهما ، وهو أن يعمل على نكبة الوزير ابن الخطيب ومصرعه ، وذلك لما كان يعتقد أنه ابن الأحمر من أن وزيره السابق كان يحرض السلطان عبد العزيز على محاربتة . وعندئذ رأى بلاط فاس الفرصة سانحة لمطاردة ابن خلدون ونكبته ، فطلب الى ابن الأحمر تسليمه بحجة أنه كان يسعى لإيقاد ابن الخطيب ، فأبى ابن الأحمر ، ولكنه ارتضى أن يجيز ابن خلدون الى إفريقية . والواقع أن ابن خلدون سعى لإيقاد صديقه . وكان ابن الخطيب حين اضطرام الثورة قد لجأ الى البلد الجديد (ضاحية فاس) مع الوزير ابن غازي ، فلما استولى السلطان الجديد على فاس قبض عليه . وكان يرسف في سجنه حين قدم ابن زمرك على السلطان يسعى لإهلاكه . وذهب المفكر والكاتب والسياسي العظيم ضحية المساومة الشائنة ، وضحية التعصب والجهل ، اذ اتهم بالزندقة فيما ورد ببعض رسائله ، فعذب وأقتى بعض الفقهاء السفلة بقتله

فقتل خنقا في سجنه وأحرقت جثته (سنة ٧٧٦ هـ - ١٣٧٤ م)^(١).
وقد نقل الينا ابن خلدون هذه الأبيات المؤثرة من شعر كان ينشده
ابن الخطيب في سجنه يرثى به نفسه :

بعدنا وإن جاورتنا البيوت	وجئنا بوعظ ونحن صموت
وأنفاسنا سكنت دفعة	بكهر الصلاة تلاه القنوت
وكنا عظاما فصرنا عظاما	وكنا نقوت فهانحن قوت
وكنا شمس سماء العلا	عزير فناحت عليها البيوت
فقل للعدا ذهب ابن الخطيب	وفات ومن ذا الذي لا يفوت
فمن كان يفرح منكم له	فقل يفرح اليوم من لا يموت

(١) كتاب العبر - ج ٧ ص ٣٤١ - ٣٤٢ .

الفصل الخامس

العزلة والتأليف

عود ابن خلدون الى المغرب وعود الصلة بينه وبين أبي حمو . التجاوزه الى أحياء عريف . بدؤه بكتابة مؤلفه التاريخي . كتابة المقدمة وتاريخ العرب والبربر . سعيه الى العودة الى تونس . السلطان أبو العباس يأذن له . عودته الى وطنه . اتسامه لمؤلفه ورفعته إياه الى السلطان . قصيدته يوم الإهداء . الدساتيس من حوله . خروجه مع السلطان في الحملات الحربية . اعتزامه الرحلة الى المشرق وركوبه البحر . زهده في الحياة السياسية

وهكذا كاد القدر يجمع بين الصديقين لآخر مرة في ظروف مماثلة ، وكاد ينكبهما بحنة مشتركة . ولكن ابن خلدون كان أسعد حظا من صديقه إذا كتفى سلطان غرناطة بأن يقصيه عن أرضه وأن يرده الى إفريقيا . فنزل في مرسى هنين حائرا جزعا لا يعلم أنى يقصد . وكان أخوه يحيى قد عاد الى خدمة أبي حمو أمير تلمسان ، ولكن أبا حمو كان ناقما عليه أيما نقمة لما فعله في حقه مرة بعد مرة ، فتركه شريدا في هنين . ثم شفع في أمره صديقه محمد بن عريف من رؤساء بني عريف ، وما زال حتى عفا عنه أبو حمو وأذن في قدومه الى تلمسان ، فقدمها في عيد الفطر سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤ م) ، وأراد أن ينقطع للدرس والقراءة . ولكن أبا حمو انتدبه مرة أخرى ليدعوله بين القبائل ، فاضطر ابن خلدون أن يتظاهر بالقبول مرغما . ولكنه كان على ما يظهر

قد عاف عمار السياسة نهائيا ، فما كاد يغادر تلمسان حتى ولى شطر قبلة أخرى ، وسار الى أحياء بنى عريف فنزل لديهم ، ولحقت به أسرته بعد قليل من تلمسان ، واعتذر له أصدقائه لدى السلطان أبي حمو ، وأكرم بنو عريف مشواه أيما اكرام ، وانزلوه مع أسرته بأحد قصورهم في قلعة سلامة من أعمال توجين^(١) ، فقطع ابن خلدون في ذلك المقر النائي المنعزل مدى أربعة أعوام ، ونعم لأول مرة بالاستقرار والهدوء المستمر ، بعيدا عن غمار السياسة والدسائس السلطانية ، ومخاطر التجوال والحملات الحربية ، وألقى لأول مرة فرصة واسعة للبحث والدرس .

وفي تلك الفترة الهادئة بدأ ابن خلدون بكتابة مؤلفه التاريخي . وكان يومئذ في نحو الخامسة والاربعين من عمره ، وقد نضجت مباحثه ومطالعته . وكان قد قطع نحو ربع قرن يخوض معترك السياسة ، متقلبا في خدمة القصور والدول المغربية ، يدرس شئونها ونظمها ويستقصى سيرها وأخبارها ، ويجوس خلال الهضاب والصحارى المغربية متغلغلا بين القبائل البربرية يدرس طبائعها وأحوالها وتقاليدها في الحياة العامة والحياة الخاصة . وكان ذهنه الخصب ، فضلا عن هذه الدراسة العملية ، يفيض بثمار الإطلاع الشاسع ، الذي كان يجد في تحصيله كلما سنحت الفرص في مكاتب المغرب والأندلس . وكانت عزلة مباركة موفقة ، ففي ذلك المقام النائي المنعزل ، كتب ابن خلدون

(١) تقع هذه المنطقة جنوب إقليم قسنطينة حول مدينة تاوغورت على نحو مائة

ميل من حدود تونس الغربية .

مقدمة تاريخه، وألم تلك المباحث والنظريات الخالدة التي تتبوأ مكانة رفيعة بين ثمرات التفكير البشري، ووهب تراث العربية ذلك الأثر الخالد الذي مازالت تزهو به وتفخر به، وانتهى ابن خلدون من كتابة مقدمته العجيبة لأول مرة في منتصف سنة ٧٧٩ هـ (١٣٧٧ م) واستغرق في كتابتها خمسة أشهر فقط^(١) ثم نقحها وهذبها بعد ذلك. وهو يقول لنا في دهشة من نفسه وإعجاب بتوفيقه «وأكلت المقدمة على هذا النحو الغريب الذي اهتديت إليه في تلك الخلوة، فسالت فيها شأيب الكلام والمعاني على الفكر حتى امتخضت زبدتها، وتألفت نتائجها»^(٢). ثم شرع بعد إتمام المقدمة في كتابة تاريخه، فكتب منه تاريخ العرب والبربر ووزناته أو بعبارة أخرى كتب منه أقسامه الأولى والأخيرة حسب النظام الذي انتهى به الينا. ولم يكن في برنامج ابن خلدون أن يكتب تاريخاً عاماً للخلق، بل كان قصده الأساسي أن يكتب تاريخ المغرب والدول البربرية، وهو ما يشير إليه في المقدمة بقوله: «وأنا إذا كر في كتابي هذا ما أمكنني منه في هذا القطر المغربي إما صريحاً أو مندرجاً في أخباره وتلويحاً، لاختصاص قصدي في التأليف بالمغرب وأحوال أجياله وأمه وذكور ممالكه دون ما سواه من الأقطار، لعدم اطلاعي على أحوال المشرق وأمه، وأن الأخبار المتناقلة لا توفي كنه ما أريده منه»^(٣)، ولكنه عاد فعدل برنامجه،

(١) راجع ختام المقدمة — ص ٥٣٤

(٢) كتاب العبر — ج ٧ ص ٤٤٤

(٣) المقدمة — ص ٢٧

ورأى أن يكتب تاريخا عاما للخليفة . ولما كان يتقصه في مقامه المنعزل كثير من المراجع الضرورية ، فقد اعتزم العودة إلى وطنه تونس حيث تهيء له مكاتبها الغنية فرصة المراجعة والتحقيق . وكان ذلك في أواسط سنة ٧٨٠ هـ (١٣٧٨ م) بعد أن أكمل المقدمة والاقسام المتعلقة بتاريخ العرب والبربر

وكان على عرش تونس يومئذ السلطان أبو العباس الذي عهدناه من قبل أميرا لقسنطينة ثم انتزع بجاية من يد ابن عمه الأمير محمد وولى ابن خلدون له الحجابة حينما ، ثم سخط عليه وحاول اعتقاله ففر منه إلى بسكرة ، فاعتقل عندئذ أخاه يحيى في بونه وصادر أموالهم . ولبث أبو العباس بعد ذلك يتحين الفرص للاستيلاء على تونس ، ولجأ إليه وزيرها ابن تافراكين الذي استبد حينما بشؤونها حينما جرده السلطان أبو إسحاق من سلطته ، وأخذ يعمل لمعاونته على تحقيق مشروعه . وفي سنة ٧٧١ هـ زحف على تونس في قوات كبيرة واستولى عليها من يد سلطانها الطفل ولد أبي إسحاق ، ثم استولى من بعدها تباعا على جميع ثغور إفريقية ، وقامت الدولة الحفصية مرة أخرى قوية وطيدة الدعائم . وكانت العلاقات سيئة بين السلطان أبي العباس وبين ابن خلدون منذ حوادث بجاية أعنى منذ أكثر من عشرة أعوام . فلما اعتزم المؤرخ العودة إلى تونس مسقط رأسه ومثوى أسرته ، يحمله حب الوطن ورغبة البحث والمراجعة ، كتب إلى السلطان أبي العباس يرجوه الصفح والإذن بالعودة ، فرد السلطان بالقبول والصفح والدعوة بالقدوم ، فغادر ابن خلدون أحياء عريف في شهر رجب سنة ٧٨٠ هـ واجتاز

الصحراء ومصر في طريقه بقسنطينة فاستراح بها حيناً في ضيافة الأمير إبراهيم ابن السلطان أبي العباس ، ثم قصد إلى السلطان أبي العباس ، وكان يومئذ على رأس جيشه يعمل على إخماد الثورة في بعض النواحي ، فلقيه بظاهر سوسة ، خياه السلطان أجمل تحية وبالغ في إكرامه وقربه وشاوره في أموره . ثم بعثه إلى تونس وأصدر أوامره بتوفير مايجب لراحته من المسكن والمعاش . ونزل ابن خلدون تونس ، وطنه ومسقط رأسه ، لأول مرة منذ فارقتها حدثا دون العشرين في سنة ثلاث وخمسين ، واستقدم أسرته من أحياء عريف ، وأقام في دعة وأمن وسعة عاكفا على الدرس والبحث ، حتى عاد السلطان من رحلاته الحربية بعد أشهر ، فقربه إليه واختصه بمجلسه وكلفه بإتمام مؤلفه . وهنا شعر ابن خلدون مرة أخرى بالدسائس القديمة تعمل حوله ، لما آثره السلطان به من الرعاية . وكان محور هذه الدسائس خصمه الفقيه ابن عرفة شيخ الإفتاء . ويقول لنا ابن خلدون في سبب هذه الخسومة ، إنه كان يتفوق على ابن عرفة في المجالس العلمية ، وان تلامذة ابن عرفة هرعوا إليه يتلقون عليه دونه فأحفظه ذلك ، وأخذ يسمى مع رجال البطانة في حقه لدى السلطان . ولكن هذه السعاية لبثت حيناً دون أثر لتمكن منزلته ومقامه .

ولما توفرت لدى المؤرخ وسائل البحث والمراجعة ، عكف على إتمام مؤلفه وتنقيحه وتهذيبه حتى أتم منه نسخة أولى رفعها إلى مولاه السلطان أبي العباس في أوائل سنة ٧٨٤ هـ (أوائل ١٣٨٢ م) وكانت هذه النسخة الأولى تشمل المقدمة وأخبار البربر وزناتة

وتاريخ العرب قبل الإسلام وبعده وتاريخ الدول الإسلامية المختلفة^(١)، وقد انتهى ابن خلدون فيما كتبه عن أخبار الدول المغربية في عصره حتى استرجاع السلطان أبي العباس لتوزر في سنة ٥٧٨٣هـ^(٢) . ولكن هذه النسخة الأولى أكملت بعدئذ ، وأضيفت إليها أقسام كبيرة أخرى في تاريخ الدول الإسلامية في المشرق ، وتاريخ الدول القديمة والدول النصرانية كما سنين بعد .

وفي نفس اليوم الذي رفع فيه ابن خلدون النسخة الأولى من كتابه للسلطان أبي العباس ، أنشده قصيدة طويلة في نحو مائة بيت ، يشيد فيها بسيرته وأعماله ، ويستدر عطفه ورعايته ، وينوه بكتابه ، وهي من أشهر قصائده ، وهذا مطلعها :

هل غير بابك للغريب مؤمل أو عن جنابك للأمانى معدل
هي همة بعثت إليك على النوى عزما كما شحذ الحسام الصيقل
متبوا الدنيا ومنتجع المنا والغيث حيث العارض المتهلل
ومنها :

ارح الركاب فقد ظفرت بواهب يعطى عطاء المنعمين فيجزل
لله من خالق كريم في الندى كالروض حياه ندى مخضوضل
هذا أمير المؤمنين أمامنا في الدين والدنيا اليه الموئل
هذا أبو العباس خير خليفة شهدت له الشم التي لا تجهل
سبق الملك الى العلا متمهلا لله منك السابق المتمهل
فلأنت أعلى المالكين وإن غدوا يتسابقون الى العلاء وأكمل

(١) راجع كتاب العبر — ج ٧ ص ٣٤٥ و ٣٤٦

(٢) كتاب العبر — ج ٦ ص ٣٩٦

ومنها في ذكر الكتاب :

اليك من سير الزمان وأهله
صحفا تترجم عن أحاديث الأولى
تبدي التباع والعمالق سرها
والقائمون بملة الإسلام من
لخصت كتب الأولين بجمعها
وأنت حوآشي الكلام كأنما
وجعلته اسوار ملكك مفخرا
ولله ما أسرفت فيما قلته

عبرا يدين بفضلها من يعدل
درجوا فتجمل عنهم وتفصل
وتمود قبلهم وعاد الأول
مصر وبربرهم إذا ما حصلوا
وأيتت أولها بما قد أغفلوا
سرد اللغات بها لنطق ذلوا
يهي الندى به ويزهو المحفل
شيئا ولا الإسراف مني يجمل

على أن هذه الدعة التي تفيأ ابن خلدون ظلها مدى حين ،
ما لبثت أن غشيتها الكدر . فما زال ابن عرفه وحلقاؤه خصوم
المؤرخ في دسهم وسعائتهم ؛ ولم تثر هذه السعاية في حرمان المؤرخ
من عطف مليكه ، ولكنها أثمرت في إزعاجه من طريق آخر .
ذلك أن السلطان حينما تاهب للخروج بجيشه لمقاتلة الخوارج عليه
في توزر وأعمالها سنة ثلاث وثمانين ، أمر ابن خلدون بالسفر معه ،
فصدع ابن خلدون بالأمر مكرها . وكانت نفسه قد عافت أحداث
السياسة ، وأضحى يرغب عن هذه المهام السلطانية الخطرة . ولما
أتمت الحملة أعمالها أذن له السلطان بالعود قبله ، فقصده الى ضيعته
بجوار تونس وأقام بها حتى عاد السلطان ظافرا ، فصحبه الى تونس .
ولم تمض أشهر قلائل حتى تاهب السلطان للخروج في جيشه مرة
أخرى . فخشي ابن خلدون أن يعود السلطان الى استصحابه
في حملاته ، وألا يستقر له قرار بعد . فاعتزم عندئذ مغادرة تونس

وخطرت له فكرة الحج ، يتوسل بها عذرا الى السلطان . فتضرع اليه أن يخلى سبيله وأن يأذن له في قضاء الفريضة ، فأذن ؛ وغادر ابن خلدون وطنه ومسقط رأسه كرة أخرى ، فكانت الهجرة الأبدية ؛ وخرج الى مرسى السفينة ، في حفل مؤثر من الأعيان والأصدقاء والتلاميذ يودعونه بين مظاهر الحزن والأسى ، وركب البحر الى المشرق في منتصف شعبان سنة ٧٨٤ هـ (أكتوبر سنة ١٣٨٢ م) .

* * *

وهكذا اختتم ابن خلدون بالمغرب حياة حافلة بصنوف المغامرات والحوادث ؛ ولم تكن بلا ريب خاتمة باهرة ؛ ولم تكن مما يرضى نفسه الكبيرة . كان ابن خلدون بلا ريب أعظم سياسي ومفكر عرفته إفريقية^(١) والأندلس في القرن الثامن ؛ وكانت تلك الخلال والمواهب البديعة التي حملته الى ذروة الحوادث ، وجعلت منه شخصية بارزة في تاريخ المغرب وتطوراته السياسية مدى ربع قرن ، واستطاع بفضلها أن ينعم بالزعامة والنفوذ الواسع بين تلك القبائل الصحيرية التي عرفت دائما بقوة الشكيمة وجفاء النزعة ، خليفة بأن تهى له مكانة رفيعة وطيدة في دول العصر وقصوره . وقد أنفق ابن خلدون ربع قرن في خوض غمار السياسة ودسائس القصور ، وتقلب في خدمة جميع الدول المغربية ، وتمتع مرارا بمزايا الرياسة والحكم ، وذاق مرارا محن النعمة ومرارة الإعتقال والأسر وخطر الهلاك ؛ ثم إذا به بعد طول العناء والجهد يجد نفسه حيث بدأ ، ويصبح فإذا به قد فقد عطف جميع القصور والدول التي تقلب

(١) نستعملها هنا بمعنى المغرب بجميع أقطاره .

في خدمتها وأسدى إليها أجل الخدمات أحيانا؛ ثم إذا به يجد نفسه في هذا الملاذ الأخير الذي آوى إليه واستقر في ظلاله ، موضع السعاية والكيد . وكان يشعر منذ حين بمرارة هذه الخيبة ويلتمس السلوى في البحث والتأليف ؛ وقد هدأت نفسه المضطربة بشغف النضال والمغامرة ، وعاف أحداث الساسية ، وأخذ يتبرم بقضاء تلك المهام السلطانية التي كان يتخذ قضاءها وسيلة للنفوذ والرياسة . وكان ينشد الإستقرار والحياة الهادئة بعد طول التجوال ويرجو أن يطوى مرحلة الحياة في وطنه ، ويثوى إليه الثواء الأخير الى جانب آبائه وأجداده . ولكنه لم يظفر حتى بتلك الأمنية المتواضعة ، وأزعجه كيد خصومه في مقامه الهادئ ؛ وخشى أخيرا عاقبة الكيد والسعاية ، ولم يجد في تونس ما كان ينشد من هدوء وسكينة ؛ فاضطر أن يلتمس الحج عذرا للرحيل والنجاة ، وأن يودع الأهل والولد ، وأن يغادر الوطن وحيدا فريدا الى حيث لا يعلم ماذا هيأت له الأقدار .

٢

ابن خلدون في مصر

٧٨٤ - ٥٨٠٨ : ١٣٨٢ - ١٤٠٦ م

الفصل السادس

ولاية التدريس والقضاء

مقدم ابن خلدون الى مصر . وصفه للقاهرة . جلوسه بالأزهر . اتصاله بالبلاط . ولايته التدريس بالمدرسة القمحية . الدرس الأول . ولايته لقضاء المالكية . اضطراب الأفق حوله . حديثه عن القضاء . تعليق الكتاب المصريين على مسلكه . هلاك أسرته في البحر . عزله عن القضاء وبقاؤه في منصب التدريس . سفره للحج . ولايته للتدريس في الصرغتمشية . الدرس الأول . تعيينه شيخا لخانقاه ببيرس . ثورة يلبغا الناصري وعزل السلطان برقوق . سقوط يلبغا وعود برقوق الى العرش . تأملات ابن خلدون عن الدول المصرية . انقطاعه للدرس والبحث . سعيه الى عقد الصلة بين بلاط مصر وقصور المغرب .

— ١ —

غادر ابن خلدون تونس في منتصف شعبان سنة ٧٨٤ هـ (أكتوبر سنة ١٣٨٢ م) كما قدمنا ، فوصل الى ثغر الاسكندرية في يوم عيد الفطر بعد رحلة بحرية شاقة . ويقول لنا ابن خلدون إنه قدم الى مصر ليبتعث منها في ركب الحاج وإنه لبث بالاسكندرية شهرا يهيئ العدة لذلك ، ولكن لم يتح له يومئذ ان يحقق هذه الغاية ، فقصد الى القاهرة^(١) . ولكن قضاء الفريضة لم يكن سوى حجة الظاهرة في مغادرة تونس ، وكان مقدمه الى مصر ، كما رأينا نوعا من الفرار ، وخيفة البطش والمحنة . وكان يرجو بلا ريب أن

يقضى أيامه بمصر في هدوء ودعة ، وأن ينعم بذلك الاستقرار الذى لم تهيئه له بالمغرب حياة النضال والمغامرة . وكان يومئذ فى الثانية والخمسين من عمره ، ولكنه كان وافر النشاط والقوة ، يتطلع دائماً الى مراتب النفوذ والعزة ؛ وكانت القاهرة يومئذ موئل التفكير الاسلامى فى المشرق والمغرب ، ولبلادها شهرة واسعة فى حماية العلوم والآداب . فكان يرجو أن ينال قسطه من هذه الرعاية والحماية . ووصل ابن خلدون الى القاهرة فى أول ذى القعدة سنة ٧٨٤ — نوفمبر سنة ١٣٨٢ ؛ فبهرتة سخامتها وعظمتها وبهاؤها كما بهرت سلفه ومواطنه الرحالة ابن بطوطة قبل ذلك بنصف قرن^(١) ، وكما بهرت على كمر العصور كل من رآها من أعلام المشرق والمغرب . ولا غرو فإن المؤرخ لم ير بالمغرب سوى تلك المدن الصحيرية المتواضعة ، ولم ير بالأندلس حيث قضى ردها من الزمن مدينة فى عظمة القاهرة وروعتها . وهو يهتف للقاهرة أثر مقدمه ويحجها بحماسة تم عن عميق إعجابه وسحره وتأثره ، ويصفها فى تلك الفقرة الرنانة : « فرأيت حاضرة الدنيا ، وبستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج الذر من البشر ، وإيوان الاسلام ، وكرسى الملك ؛ تلوح القصور والأواوين فى جوه ، وتزهو الخوانق والمدارس والكواكب بأفاقه ، وتضىء البدر والكواكب من علمائه ، قد مثل بشاطئ النيل نهر ، ومدفع مياه السماء ، يسيقه العلل والنهل سيحه ، ويجبى اليهم الثمرات والخيرات ثجه ؛ ومررت

(١) وفد ابن بطوطة على القاهرة سنة ٥٧٢٦ هـ — ١٣٢٦ م فى عهد الناصر بن

قلاوون .

في سكك المدينة تفص بزحام المارة، وأسواقها تزخر بالنعم...» .
ولم يكن ابن خلدون نكرة في مصر، فقد كان المجتمع القاهري يعرف الكثير عن شخصه وسيرته؛ وكان ذكر مؤلفه الضخم ولا سيما مقدمته الشهيرة قد سبقه وذاعت نسخه الأولى قبل ذلك بقليل في مصر وغيرها من بلدان المشرق، وأعجبت دوائر العلم والتفكير والأدب بطرافة مقدمته وجدتها وروعة مباحثها . فلم يكذب محل بالقاهرة حتى أقبل عليه العلماء والطلاب من كل صوب . يقول ابن خلدون في كبرياءه وتواضعه معا: «وانثال على طلبة العلم بها يلمسون الإفادة مع قلة البضاعة ، ولم يوسعوني عذرا»^(١) وهذا ما تشير إليه التراجم المصرية ؛ فيقول أبو المحاسن بن تغري بردى في ترجمته لابن خلدون: « واستوطن القاهرة وتصدر للإقراء بالجامع الأزهر مدة، واشتغل وأفاد»^(٢) ويقول السخاوي: «وتلقاه أهلها (أي أهل مصر) وأكرموه، وأكثروا ملازمته والتردد عليه، بل تصدر للإقراء بالجامع الأزهر مدة ... »^(٣) . جلس ابن خلدون للتدريس بالأزهر، والظاهر أنه كان يدرس الحديث والفقهاء المالكي، ويشرح نظرياته في العمران والعصبية وأسس الملك ونشأة الدول، وغيرها مما عرض إليه في مقدمته . وكانت هذه الدروس خير

(١) كتاب العبر — ج ١ ص ٤٥٢

(٢) كتاب المنهل الصافي لابن تغري بردى — نسخة دار الكتب الخطية

رقم ١١٣ تاريخ — ج ٢ ص ٢٠٠

(٣) كتاب الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع عشر للسخاوي — نسخة

دار الكتب الفوتوغرافية رقم ٦٧٥ تاريخ، المجلد الثاني من القسم الثاني، ص ٣٦٧

اعلان عن غزير علمه ، وشائق بحثه ، وساحر بيانه . وكان ابن خلدون محدثا بارعا رائع المحاضرة ، يخلب الباب سامعيه بمنطقه وذلافته . وهذا ما يحدثنا به جماعة من أعلام التفكير والأدب المصريين الذين سمعوه أو درسوا عليه ؛ ومنهم المؤرخ الكبير تقي الدين المقرئ الذي سمعه ودرس عليه فتي^(١) ، وكذا الحافظ ابن حجر ؛ فقد درس عليه وانتفع بعلمه ووصفه بقوله : « وكان لسنا ، فصيحاً ، حسن الترسل وسط النظم ؛ مع معرفة تامة بالأموار خصوصاً متعلقات المملكة »^(٢) ونقل السخاوي عن الجمال البشبيشي أنه « كان فصيحاً مفوهاً جميل الصورة » ، وعن الركاكي « ان محاضرتة اليها المنتهى »^(٣) .

وهكذا استطاع ابن خلدون لأقول مقدمه أن يخلب ألباب المجتمع القاهري ، وأن يستثير إعجابهم وتقديره ؛ ولكن صفاء الأفق من حوله لم يدم طويلاً كما سنرى . وفي أثناء ذلك اتصل ابن خلدون بأمير من أمراء البلاط يدعى علاء الدين الطنبغا الجواني^(٤) فشمله برعايته ، وساعده على التقرب من السلطان والاتصال به ؛ وكان السلطان يومئذ الظاهر برقوق ، وقد ولي الملك قبيل مقدم ابن خلدون بأيام قلائل (أواخر رمضان سنة ٧٨٤) ،

(١) نعود الى تقدير المقرئ لشيخه ابن خلدون فيما بعد .

(٢) كتاب أنباء الغمر في أنباء العمر لابن حجر العسقلاني (نسخة دار الكتب

الخطية رقم ٢٤٧٦ تاريخ) ج ١ ص ٧١١

(٣) الضوء اللامع — المجلد الثاني من القسم الثاني ، ص ٣٦٩

(٤) هكذا اسمه في « المنهل الصافي » ولكن السخاوي يسميه « الطنبغا الجواني » .

فأكرم وفادة المؤرخ واهتم بأمره ؛ يقول ابن خلدون : « فأبتر مقامي ، وآنس الغربية ، ووفر الجراية من صدقاته ، شأنه مع أهل العلم » وبذا تحققت أمنية المؤرخ من الإستقرار والمقام الهادئ في ظل أمير يحميه ويكفل رزقه . ولم يمض قليل على ذلك حتى خلا منصب للتدريس بالمدرسة القمحية ، بجوار جامع عمرو وهي من مدارس المالكية ، فعينه السلطان فيه . ويعنى ابن خلدون في تعريفه ، بوصف مجلسه الأول في هذا المعهد ، فقد شهدته جمهرة من الأكابر أرسلهم السلطان لشهوده والتفوا حول المؤرخ . وألقى ابن خلدون في ذلك الحفل خطابا بليغا ، يحرص على إيراده بنصه . وقد تكلم فيه بعد الديباجة عن فضل العلماء في شد أزر الدولة الاسلامية ، وعن تغلب الدول ؛ ثم أشاد بما لدول السلاطين المصرية من فضل في نصره الاسلام ، وإعزازة ، ومن همم في إنشاء المساجد والمدارس ، ورعاية العلم والعلماء والقضاة ؛ ثم دعا للملك الظاهر ، وأشاد بعزمه وعدله وعقله ؛ وعطف بعدئذ على نفسه ، وما أوليه من شرف المنصب في تلك العبارة الشعرية : « ولما سبحت في اللج الأزرق ، وخطوت من أفق المغرب إلى المشرق ، حيث نهر النهار ينصب من صفحة المشرق ، وشجرة الملك التي اعتربها الاسلام تهتز في دوحه المعرق ، وأزهار القنون يسقط علينا من غصنه المورق ... أولوني عناية وتشريفا ، وغمروني إحسانا ومعروفا ، وأوسعوا همتي إيضاحا ونكرتي تعريفا ، ثم أهلوني للقيام بوظيفة السادة المالكية بهذا الوقف الشريف ... الخ » (١) .

(١) لم يرد وصف هذا المجلس ، ولا نص هذه الخطبة في فصول « التعريف » =

وإنه لمنظر شائق ذلك الذي يقدمه إلينا ابن خلدون عن مجلسه في ذلك اليوم ومن حوله العلماء والأكابر يشهدون الدرس الأول لذلك المفكر المبدع . وهو يحرص على تدوينه كما يحرص على تدوين الأثر الذي يعتقد أنه أحدثه إذ يقول : « وانفض ذلك المجلس وقد شيعتني العيون بالثجلة والوقار » (١) . وفي ذلك ما يدل على ما كان يشعر به ابن خلدون في كبرياء وثقة من أنه كان شخصية ممتازة تجب إحاطتها بمظاهر خاصة من التكريم والرعاية . ثم كانت الخطوة الثانية في ظفره بمناصب الدولة ، وتعيينه قاضيا لقضاة

= المطبوعة الملحقة بتاريخ ابن خلدون (كتاب العبر) . ولكنهما وردا في نسخة خطية أتم من التعريف تحفظ بدار الكتب المصرية (رقم ١٠٩ م تاريخ) ص ١٠٨ — ١١٠ . ونسخة التعريف المتداولة تقف في ترجمة المؤرخ والتعريف به عند مستهل سنة ٧٩٧ هـ (راجع كتاب العبر — طبعة بولاق ج ٧ ص ٤٦٢) حيث يختم ابن خلدون فصول التعريف عن نفسه . ولكن نسخة دار الكتب الخطية التي ذكر في نهايتها أنها نقلت عن نسخة أصلية للؤلؤف تحتوي بعد ذلك على عدة فصول أخرى عن حياة ابن خلدون في مصر ، كتبها بإسهاب عن ولايته لوظائف التدريس والقضاء ، وعن سعيه لعقد العلائق بين سلطان مصر وسلطين المغرب ، وعن بعض حوادث مصر الداخلية يومئذ ، ثم سفره الى الشام في ركب الملك الناصر فرج ، ولقائه ملك التتار تيمورلنك في دمشق وما دار بينهما من الأحاديث ثم عوده الى مصر . ويختل ذلك كله تعليقات فلسفية واجتماعية لبعض الظواهر والحوادث السياسية على طريقته في المقدمة . ويصل ابن خلدون في رواية حوادث حياته هذه حتى سنة ٨٠٧ هـ . أعني قبيل وفاته ببضعة أشهر فقط . وتشغل هذه الفصول في النسخة الخطية المذكورة نحو أربعين صفحة كبيرة (من ص ١٠٧ حتى النهاية) . وسنعود الى الكلام عن « التعريف » في فصل خاص .

المالكية في أواخر جمادى الآخرة سنة ٧٨٦هـ (أغسطس ١٣٨٤م) (١) مكان القاضى المعزول جمال الدين بن خير السكندرى . وكان ارتفاعه إلى هذا المنصب الذى هو رابع أربعة تعتبر من أهم مناصب الدولة إيذانا بوثوب العاصفة من حوله ، واضطراب تلك الخصومات التى كدرت صفو مقامه ، وأدالت نفوذه ، واقتلعت من المنصب غير مرة . يقول ابن خلدون فى سخرية : « وأقت على الاشتغال بالعلم وتدرسه إلى أن سخط السلطان قاضى المالكية يومئذ فى نزعة من النزعات الملوكية ، فعزله واستدعانى للولاية فى مجلسه وبين أمراءه ، فتفاديت من ذلك ، وأبى إلا مضاءه » (٢) . وقد عرف ابن خلدون هذه « النزعات الملوكية » ، وعرف أنها تبطن من الشر والنقم فى معظم الأحيان أكثر مما تسبغ من العطف والنعم . ولكنه يريد أن نفهم أن ارتفاعه إلى منصب القضاء لم يكن نزعة ملوكية فقط ، وإنما اختاره السلطان كما يقول ، « تأهילה لمكانه وتتويها بذكره » .

— ٢ —

ونستطيع أن نقدر أن ولاية ابن خلدون لخطة القضاء لم تكن

(١) يذكر ابن خلدون أن تعيينه فى هذا المنصب وقع لأول مرة فى رجب سنة ٧٨٦ . ولكن الروايات المصرية كلها متفقة على أن هذا التعيين كان فى جمادى الآخرة (السخاوى فى الضوء اللامع ؛ وابن تغرى بردى فى المنهل الصافى كل فى ترجمته لابن خلدون — والسيوطى فى حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢٣) . ولكن يبدو من رواية ابن خلدون أنه بدأ بمباشرة وظيفته فى رجب ، وأنه يجعل من التعيين وبدأ العمل واقعة واحدة .

(٢) نسخة التعريف الخطية — ص ١١١

حادثا عاديا . فقد كان أجنبيا ، وكان تقدمه في حظوة السلطان ،
وفي نيل المناصب ، سريعا . وكانت مناصب التدريس والقضاء
دائما مطمح جمهرة الفقهاء والعلماء المحليين ؛ ولم يكن مما يحسن
وقعه لديهم أن يفوز بها الأجانب الوافدون دونهم . وإذا فقد تولى
العلامة المغربي منصبه في جو يشوبه كدر الخصومة والحسد .
وجلس بمجلس الحكم في المدرسة الصالحية بحى بين القصرين ؛ فلم
يمض سوى قليل حتى ظهرت من حوله بوادر الحقد والسعاية .
ويقول لنا ابن خلدون في سبب هذه العاصفة التي ثارت حول
توليه القضاء ، كلاما طويلا عما كان يسود القضاء المصرى يومئذ
من فساد واضطراب ، وما يطبع الأحكام من غرض وهوى ،
وعما كان عليه معظم القضاة والمفتين والكتاب والشهود من جهل
وفساد في الذمة ؛ وانه حاول إقامة العدل الصارم المتره عن كل
شائبة ، وقع الفساد بحزم وشدة ، وسحق كل سعاية وغرض .
يقول : « فقامت بما دفع إلى من ذلك المقام المحمود ، ووفيت
جهدى بما أمنى عليه من أحكام الله لا تأخذنى في الله لومة ،
ولا يرغبنى عنه جاه ولا سطوة ؛ مسويا بين الخصمين ، آخذ
الحق الضعيف من الحكيم ، معرضا عن الشفاعات والوسائل
من الجانبين ؛ جانحا الى التثبت في سماع البيئات ، والنظر
في عدالة المنتصين لتحمل الشهادات ؛ فقد كان البر منهم مختلطا
بالفاجر ، والطيب متلبسا بالخبيث ؛ والحكام ممسكون عن
انتقادهم ، متجاوزون عما يظهر عليهم من هناتهم ، لما يموهون
به من الإعتصام بأهل الشوكة ؛ فإن غالبهم مختلطون بالأمرء ،

معلمون للقرآن وأئمة للصلوات ؛ يلبسون عليهم بالعدالة فيظنون بهم الخير ؛ ويقسمون الحظ من الجاه في تركبتهم عند القضاة ، والتوسل لهم ؛ فأعضل داؤهم ، وفشت المفاصد بالتزوير والتدليس بين الناس منهم ؛ ووقفت على بعضها فعاقبت فيه بموجع العقاب ، ومؤلم النكال ... » ثم يعدد نواحي الفساد التي شهدها ، وجد في إصلاحها وقمعها ، وكيف مضى في سبيله « من الصرامة وقوة الشكيمة » وكيف احتقر شفاعات الأعيان والأكابر خلافا لما اصطاح عليه زملاؤه القضاة من قبولها ، حتى ثار عليه السخط من كل ناحية ، وسلقته جميع الألسن وكثرت في حقه السعاية لدى البلاط (١) .

وهذا التعليل الذي يقدمه لنا ابن خلدون عن سبب الحفيظة عليه ، واضطرار الخصومة حوله ، معقول يحمل طابع الصراحة والصدق . بل هذا ما تسلم به التراجم المصرية المعاصرة والقريبة من عصره . فيقول أبو المحاسن مثلاً مشيراً الى ولايته للقضاء : « فباشره بجرمة وافرة ، وعظمة زايدة ، وحمدت سيرته ودفع رسائل أكابر الدولة ، وشفاعات الأعيان ، فأخذوا في التكلم في أمره ... » (٢) . ويقول ابن حجر وينقله السخاوى : « فتنكر (أى ابن خلدون) للناس بحيث لم يقم لأحد من القضاة لما دخلوا للسلام عليه مع اعتذاره لمن عيبه عليه في الجملة ، وفتك في كثير من أعيان الموقعين والشهود ، وصار يعزر بالصفع ، وشبهة الزج ،

(١) كتاب العبر — ج ٧ ص ٤٥٣ و ٤٥٤ .

(٢) المنهل الصافي — ج ٢ ص ٣٠١ .

فإذا غضب على إنسان قال زجوه ؛ فيصنع حتى تحمر رقبتة» (١) .
وفما ينقل السخاوى قصد الى التعريض والانتقاص . وسنرى
أنه شديد الوطأة على ابن خلدون يشتد في نقده وتجريحه ؛ ولكن
في قوله ما يؤيد أن ابن خلدون كان يصدر في قضائه عن نزاهة
وحزم وصرامة ؛ بل هو يشهد لابن خلدون بذلك صراحة ؛ حينما
يقول عنه في موضع آخر: «ولم يشتهر عنه في منصبه إلا الصيانة» .

انتقضت العاصفة على ابن خلدون اذا لأشهر قلائل من ولايته ،
وكثر السعى في حقه والإغراء به حتى «أظلم الجوبينه وبين أهل
الدولة» على حد تعبيره ، وقد حظوته وما كان يتمتع به من عطف
ومؤازرة . واصابته في ذلك الحين نكبة أخرى هي هلاك زوجه
وولده وماله . وكان منذ مقدمه ينتظر لحاق أسرته به ؛ ولكن
سلطان تونس حجزها عن السفر ليرغمه بذلك على العودة الى تونس ،
فتوسل الى السلطان الظاهر أن يشفع لديه في تخليته سبيل
أسرته ففعل ، وأطلق سراح الأسرة وركبت البحر الى مصر .
ويروى لنا ابن خلدون نبأ الفاجعة في قوله : «ووافق ذلك مصابي
بالأهل والولد . وصلوا من المغرب في السفين ؛ فأصابها قاصف
من الريح ، فغرقت ، وذهب الموجود والسكن والمولود ؛ فعظم
المصاب والجزع ، ورجح الزهد ، واعتزمت على الخروج عن المنصب» .
ولم يمض سوى قليل حتى أقبل المؤرخ من منصب القضاء ،
أو بعبارة أخرى ، حتى عزل . بيد أنه يريد أن نفهم أن هذا

(١) ابن حجر في رفع الإصر عن قضاة مصر (مخطوط دار الكتب) في ترجمة

ابن خلدون ؛ والسخاوى في الضوء اللامع المجلد الثاني من القسم الثاني ص ٣٦٧ .

العزل جاء محققا لرغبته إذ يقول : « وشملتني نعمة السلطان أيده الله في النظر بعين الرحمة ، وتخليّة سبيلي من هذه العهدة التي لم أطق حملها ، ولا عرفت فيما زعموا مصطلحها ، فردها الى صاحبها الأول ، وأنشطني من عقالمها ، فانطلقت حميد الأثر مشيعا من الكافة بالأسف والدعاء وحميد الثناء ، تلحظني العيون بالرحمة ، وتتناجى الآمال في بالعودة » والخلاصة ان ابن خلدون يؤكد لنا ان عزله كان نتيجة التباطل والحقد والسعاية فقط ، وانه أثار استياء وأسفا في المجتمع القاهري ، وانه غادر منصبه موفورا الكرامة والهيبة . بيد اننا سنرى ، حسبما يشير في قوله المتقدم ، انه كان يُرمى بجهل الأحكام والإجراءات وبأنه لم يكن بذلك أهلا لتولى القضاء ، وبأنه كان مشغوبا بالمنصب أشد ما يكون حرصا عليه . وكان عزل ابن خلدون عن منصب القضاء لأول مرة في السابع من جمادى الأولى سنة ٧٨٧ هـ (يوليه ١٣٨٥ م) ، أعنى لنحو عام فقط من ولايته ، فانقطع إلى الدرس والتأليف كرة أخرى على أن هذا العزل لم يكن إيذانا بسخط السلطان ونقمته ، فقد لبث ابن خلدون في منصب التدريس بالقمحية ، ولم يمض سوى قليل حتى عينه السلطان أيضا لتدريس الفقه المالكي بمدرسته الجديدة التي أنشأها في حيّ بين القصرين (المدرسة الظاهرية البرقوقية) . واحتفل ابن خلدون كعادته بالدرس الأول ، وألقى خطابا بليغا يدعو فيه للسلطان ، ويعتذر عن قصوره في تواضع ظريف . واشتغل بالدرس في المعهدين حتى كان موسم الحج عام تسعة وثمانين ، فاعتزم عندئذ أداء الفريضة . وأذن له السلطان

وغمره بعطائه . وغادر القاهرة في منتصف شعبان ، وقصد الى
الحجاز بطريق البحر ، ثم عاد بعد أداء الفريضة ، بطريق البحر أيضا
حتى القصير ، ثم اخترق الصعيد بطريق النيل ، فوصل القاهرة
في جمادى الأولى سنة تسعين (٥٧٩٠ هـ) ، وقصد السلطان تولا
وأخبره بأنه دعا له في الأماكن المقدسة ، فتلقاه بالعطف والرعاية .
ثم خلا كرسي الحديث بمدرسة صرغتمش ^(١) ، فولاه السلطان إياه
بدلا من تدريس الفقه بالمدرسة السلطانية ، وجلس للتدريس
فيها في المحرم سنة إحدى وتسعين ، وألقى خطاب الإفتتاح كعادته
في حفل فخيم ، وأعلن أنه قد قرر للقراءة في هذا الدرس كتاب الموطأ
للإمام مالك ، ويعرفنا ابن خلدون بموضوع درسه الأول في ذلك
اليوم ، فقد تكلم فيه عن مالك ونشأته وحياته وكيفية ذبوع
مذهبه ، ثم يقول لنا في كبريائه المعهود : « وانفض ذلك المجلس ،
وقد لاحظتني بالتجلة والوقار العيون ، واستشعرت أهليتي للمناصب
القلوب ، وأخلص النجا في ذلك الخاصة والجمهور » ^(٢) .

— ٣ —

ثم عين المؤرخ في وظيفة أخرى هي مشيخة (نظارة) خانقاه
بيبرس ، وهي يومئذ أعظم الخوانق أو ملاجىء الصوفية ^(٣) ، فزادت
جرايته ، واتسعت موارده . ولكن أمد سكينته لم يطل ، فقد
نشبت فتنة خطيرة أودت بعرش الظاهر برقوق ، بطلها ومدبرها

(١) كان موقع هذه المدرسة شمال الجامع الطولوني على مقربة من القلعة .

(٢) التعريف (النسخة الخطية) — ص ١٢١

(٣) كانت هذه الخانقاه الشهيرة تقع في طريق باب النصر على مقربة منه .

الأمير يلبغا الناصري نائب حلب ، وكانت نظم البلاط القاهري وظروفه وما يضطرم به من الدسائس والخيانات مما يسمع بتكرار هذه الفتن ، وكان يلبغا الناصري نائب السلطنة من قبل ، وزعيم عصبة قوية من الأمراء والفرسان ، وكان الظاهر برقوق من جملة أمرائه وتابعيه ، ولكنه استطاع في فتنة سابقة (رمضان سنة ٧٨٤) أن يظفر بالعرش دونه ، وأن يجرده من سلطته ونفوذه ، وأن يقصيه الى الشام . ثم سنحت فرصة الخروج ليلبغا ، فسار الى القاهرة في أتباعه وتحول أنصار برقوق عنه ، ففر من القلعة ، ودخل يلبغا الناصري القاهرة ، وأعاد الصالح حاجي السلطان المخلوع الى العرش ، وقبض على برقوق وأرسله سجيناً الى الكرك (جمادى الأولى سنة ٧٩١) . ولكن ثورة أخرى نشبت بقيادة أمير آخر يدعى منطاش ، فقبض على الناصري ، وسار الى دمشق لمحاربة برقوق الذي استطاع أن يفر من سجنه ، فهزمه برقوق وعاد الى القاهرة ظافراً منصوراً ، واسترد عرشه في صفر سنة ٩٢ ، لبضعة أشهر فقط من عزله . ويخصص ابن خلدون في «تعريفه» فصلاً لهذه الحوادث^(١) ، ويمهد له بشرح فلسفي اجتماعي يتحدث فيه عن نهوض الدول بقوة العصبية واتساع ملكها ، ثم طغيان الحضارة والرفاهية عليها ، وخروج الأقوياء منها ، وبثهم فيها روحاً جديدة من القوة ، وتكرر هذه الظاهرة ، ثم يطبق نظريته على دول الممالك المصرية منذ صلاح الدين ، ويقص تاريخها باختصار . وهنا

(١) راجع هذا الفصل في التعريف (النسخة المخطوطة) ص ١٢٢ وما بعدها -

وراجع خطط المقرئى (بولاق) ج ٢ ص ٢٤٢

يبدو ابن خلدون كما يبدو في مقدمته، ذلك الفيلسوف الاجتماعي الذي يعنى بتعليل الظواهر والكائنات، واستقراءها في حوادث التاريخ.

والظاهر أن ابن خلدون قد عانى من جراء هذه الفتنة، ففقد مناصبه وأرزاقه كلها أو بعضها بسقوط الحزب الذي يتمتع بعطفه ورعايته. فلما عاد الظاهر برقوق الى العرش ردت اليه. يدل على ذلك قوله في التعليق على عود الظاهر: «ثم أعاده الى كرسيه للنظر في مصالح عباده، وطوقه القلادة التي ألبسه كما كانت، فأعاد لي ما كان أجراه من نعمته»^(١).

ولبت ابن خلدون على ذلك أعواما ينقطع للبحث والدرس. وهو يقف بالتعريف بنفسه عند هذه المرحلة، حتى مستهل سنة سبع وتسعين (٧٩٧)، في الترجمة المتداولة الملحقة بتاريخه. ولكنه يمضى في هذا التعريف مراحل أخرى، في النسخة المخطوطة التي أتينا على ذكرها، ويفصل حوادث حياته حتى مختم سنة ٨٠٧، أعنى قبل وفاته ببضعة أشهر. والنسخة المخطوطة أكثر تفصيلا وإسهابا حتى فيما تتفق فيه مع النسخة المتداولة من مراحل الترجمة، ولهذا آثرنا الرجوع إليها الى جانب النسخة المتداولة في كل ما هو أوفى وأتم مما تقدم ذكره من المراحل. غير أن النسخة المخطوطة ستكون منذ الآن وحدها مرجعنا فيما سيأتى من تفاصيل حياة المؤرخ حتى وفاته.

ليس في حياة ابن خلدون في هذه الفترة ما يستحق الذكر

سوى سعيه الى عقد الصلات بين البلاط القاهري وسلاطين المغرب . ويجمل ابن خلدون ذكر هذه الصلات الملوكية ، ويصف المراسلة والمهاداة بين صلاح الدين وبنى عبد المؤمن ملوك المغرب ، وبين الناصر قلاوون وملوك بنى مرين ، ويصف الهدايا المصرية والمغربية ، ثم يعطف على مساعيه في عقد الصلة بين الملك الظاهر وسلطان تونس ، وملخصها أنه كتب الى سلطان تونس يحثه على اهداء ملك مصر ، فأرسل اليه هدية من الجياد النادرة ، ولكنها غرقت مع السفينة التي كانت تحمل أسرة المؤرخ كما قدمنا . ورد الملك الظاهر بإهداء سلطان تونس ، ثم بعث سنة تسع وتسعين الى المغرب ليشتري عددا من الجياد ، فزود ابن خلدون الرسل بالإرشاد والتوصية . ولكنهم عادوا بهدية نعمة كان سلطان تونس قد أعدها وتأخر ارسالها ، وعدة هدايا أخرى قدمها أمراء المغرب ، ومنها خيل مسومة ، وعدد وسروج ذهبية . ويصف لنا ابن خلدون يوم تقديم الهدايا وعرضها ثم يقول لنا إنه شعر يومئذ بالفخر وحسن الذكر بما « تناول بين هؤلاء الملوك من السعي في الوصلة الثابتة على الأبد » .

الفصل السابع

في دمشق وفي معسكر تيمورلنك

عود ابن خلدون الى منصب القضاء . وفاة السلطان برقوق وولاية الناصر فرج . رحلة ابن خلدون الى فلسطين . عزله عن القضاء . غزو التتار للشام . مسير الناصر فرج الى لقاء الغزاة . استصحابه لابن خلدون الى دمشق . عوده بجأة الى مصر . نزول ابن خلدون من أسوار دمشق وسيره الى معسكر تيمورلنك . وصفه للقائه مع الفاتح . حديثه مع تيمورلنك . رسالته عن جغرافية المغرب . حديث الخلافة مع الفاتح . هدية ابن خلدون لتيمورلنك ، ومفاوضاته في الصلح . رواية المقرئى وابن اباس وابن عربشاه عن هذه المفاوضات . استئذان ابن خلدون للفاتح في السفر . عوده الى مصر . سعى ابن خلدون الى استعادة منصب القضاء . ولايته للمرة الثالثة . اضطرام الدسائس من حوله . ذروة المعركة بينه وبين خصومه . تعاقب الولاية على القضاء . والعزل منه . وفاة ابن خلدون .

— ١ —

لبث ابن خلدون بعيدا عن منصب القضاء زهاء أربعة عشر عاما ، يحول بينه وبين توليه ، على قوله ، ذلك الجناح من البلاط الذى شغب فى حقه ، وأغرى السلطان بعزله ، فلما ضعف ذلك الحزب وانقرض رجاله ، انتهز السلطان أول فرصة لرده الى منصبه . وكان ذلك فى منتصف رمضان سنة إحدى وثمانمائة (مايو سنة ١٣٩٨ م) على أثر وفاة ناصر الدين التمسى قاضى المالكية . وكان ابن خلدون عندئذ بالفيوم يعنى بضم قمح ضيعته التى يستحقها من أوقاف المدرسة ” القمحية ” فاستدعاه السلطان وولاه القضاء للمرة

الثانية . ثم توفي السلطان بعدئذ بقليل ، في منتصف شوال ، خلفه ولده الناصر فرج ، وسرى الاضطراب الى شئون الدولة ، واضطربت الفتن والثورات المحلية حيناً . فلما استقرت الأمور نوعاً ، استأذن المؤرخ في السفر الى بيت المقدس ، فأذن له ، وجال ابن خلدون في المدينة المقدسة ، يتفقد آثارها الخالدة ، وشهد المسجد الأقصى ، وقبر الخليل ، وآثار بيت لحم ، ولكنه أبى الدخول الى كنيسة القيامة (قبر المسيح) . يقول لنا ” وبناء أمم النصرانية على مكان الصليب بزعمهم ، فنكرته نفسى ، ونكرت الدخول اليه “ ثم عاد من رحلته ووافى ركاب السلطان أثر عوده من الشام في ظاهر مصر ، ودخل معه القاهرة في أواخر رمضان سنة ٨٠٢

وفي المحرم سنة ثلاث عزل ابن خلدون من منصب القضاء للمرة الثانية . وسرى أن هذا العزل كان نتيجة لسعى منظم من خصوم المؤرخ ، وأن تكراره كان مظهراً بارزاً لذلك النضال الذى كان يضطرم بينه وبين خصومه داخل البلاط وخارجه . ولم يمض قليل على ذلك حتى جاءت الأنباء بأن تيمورلنك قد انقض بجيوشه على الشام واستولى على مدينة حلب في مناظر هائلة من السفك والتخريب (ربيع الأول سنة ٨٠٣ هـ - ١٤٠٠ م)^(١) ثم اخترق الشام جنوباً الى دمشق . فروع مصر لهذه الأنباء ، واضطرب البلاط أيما اضطراب ، وهرع الناصر فرج بجيوشه لملاقاة الفاتح التترى ورده ، واصطحب معه القضاة الأربعة وجماعة من الفقهاء

(١) راجع تفاصيل الاستيلاء على حلب في المقرئى : السلوك فى دول الملوك —

(مخطوط دار الكتب المصرية) — ج ٢ ورقة ٢٣

والصوفية ومنهم ابن خلدون . ولا ريب أن المؤرخ لم ترقه هذه المفاجأة التي ذكرته بما عانى بالمغرب من تلك المهام السلطانية الخطرة ؛ بل هو يقول لنا صراحة إنه حاول الاعتراض والتلمص ، لولا أن عمره يشبك حاجب السلطان ”بلين القول ، وجزيل الانعام“^(١) . ويفرد المؤرخ فصلا لحوادث هذه الحملة ، ويمهد له بتعريف عن نشأة التتار والسلاجقة . وكان سفر الحملة في ربيع الثاني سنة ٨٠٣ ، فوصلت الى دمشق في جمادى الأولى ، ونزل ابن خلدون مع جمهرة الفقهاء والعلماء في المدرسة العادلية ، واشتبك جند مصر توا مع جند الفاتح في ظاهر دمشق في معارك محلية ثبت فيها المصريون ؛ وبدأت مفاوضات الصلح بين الفريقين . ولكن خلافا حدث في معسكر السلطان ، وغادره بعض الأمراء خفية إلى مصر ؛ وعلم السلطان أنهم دبوا مؤامرة لخلعه ، وتولية أمير آخر يدعى لاجين ؛ فترك دمشق لمصيرها ، وارتد مسرعا الى القاهرة فوصلها في جمادى الآخرة^(٢) . وعلى أثر ذلك وقع خلاف بين القادة والرؤساء حول تسليم المدينة . وهنا تغلب المؤرخ نزع المغامرة كما تغلب الأثرة . فقد خشى أن تقع المدينة في يد الفاتح فيكون نصيبه الموت أو النكال ؛ ورأى أن يعتصم بالجرأة ، وأن يغادر جماعة المترددين الى معسكر الفاتح ، فيستأمنه على نفسه ومصيره . ويحدثنا المؤرخ عن ذلك بصراحة ، فيقول معلقا على

(١) التعريف : النسخة المخطوطة . و يقول المقرئ إن أوامر السلطان

ليشبك كانت صريحة في ارغام ابن خلدون على السفر (السلوك — ج ٣ ورقة ٢٤) .

(٢) السلوك — ج ٢ ورقة ٢٦

ما شجرتين القادة من خلاف” وبلغنى الخبر، فخشيت البادرة على
نفسى ، وبكرت سحرا الى جماعة القضاة عند الباب ، وطلبت
الخروج ، أو التدى من السور لما حدث عندى من توهامات
ذلك الخبر“ (١) . وانتهى المؤرخ باقناع زملائه فأدلوه من السور،
وألفى عند الباب جماعة من بطانة تيمورلنك وابنه شاه ملك الذى
عينه لولاية دمشق عند تسليمها فانضم اليهم ، والتمس منهم مقابلة
تيمورا فساروا به الى المعسكر وأدخل فى الحال الى خيمة الفاتح .
ويصف لنا ابن خلدون ذلك اللقاء الشهير فى قوله : ”ودخلت
عليه بخيمة جلوسه ، متكئا على مرفقه ، وصحاف الطعام تمر بين
يديه تشريها الى عصب المغل ، جلوسا أمام خيمته حلقا حلقا .
فلما دخلت عليه ، فأنحنيت بالسلام وأوميت إيماءة الخضوع ،
فرفع رأسه ، ومد يده الى فقبليتها ، وأشار بالجلوس فجلست حيث
اتهمت ، ثم استدعانى من بطانته الفقيه عبد الجبار بن النعمان
من فقهاء الحنفية بخوارزم فأقعدته يترجم بيننا“ (٢) .

وتحدث الفاتح طويلا الى المؤرخ وسأله عن أحواله وأخباره
وسبب مقدمه الى مصر وما وقع له بها ، ثم سأله عن المغرب ومدنه
وأحواله وسلاطينه ، وطلب اليه أن يكتب له رسالة فى وصف
المغرب . وحدثه المؤرخ بأنه كان يسمع به ويتمنى لقاءه منذ أربعين
سنة أعنى مذ تآلق نجمه وبزغ مجده ، وشرح له طرفا من آرائه
ونظرياته الاجتماعية فى العصبية والملك . ولا ريب أن مفاوضة

(١) التعريف : النسخة المخطوطة .

(٢) التعريف : النسخة المخطوطة .

في شأن المدينة وقعت أيضا بين المؤرخ والفتاح واستطاع المؤرخ أن يقنع الرؤساء والفقهاء بالتسليم ؛ فقد فتحت دمشق أبوابها للفتاح على أثر ذلك ، وجاء القضاة والرؤساء وعلى رأسهم المؤرخ إلى معسكر تيمورلنك يقدمون له الخضوع والطاعة . ويقول لنا ابن خلدون ان تيمورلنك صرفهم واستبقاه حيناً ، ثم انصرف واشتغل أياماً بكتابة رسالة في وصف بلاد المغرب حتى أتمها وبلغت على قوله اثنتي عشرة كراسة صغيرة ، ثم قدمها إلى تيمورلنك فأمر بترجمتها إلى اللغة المغولية (١) .

وكان المفهوم أن دمشق قد نجحت بالتسليم من بطش الفتاح ولكن التتار احتجوا باستمرار القلعة في المقاومة فشددوا عليها الحصار حتى سلمت ، ثم اقتحموا المدينة وصادروا أهلها وأوقعوا فيها السفك والعيث والنهب وأضرموا النار في معظم أحيائها ، وتكررت المناظر المروعة التي وقعت في حلب . على أن ابن خلدون لم يقطع صلته بالفتاح بل لبث متصلاً به يتردد لزيارته خلال المحنة ، وحدثه تيمورلنك ضمن ما حدث بأمر شخص تقدم إليه مدعياً بالخلافة وأنه سليل بني العباس ، وجرت مناقشات فقهية طويلة في شأنه اشترك فيها المؤرخ وأدلى فيها بأرائه ونظرياته في الخلافة . وقدم ابن خلدون أيضاً إلى الفتاح هدية هي « مصحف رائع وسجادة أنيقة ونسخة

(١) لم تصل إلينا هذه الرسالة التي كتبها ابن خلدون في وصف بلاد المغرب ، ولكن المرجح أنها لم تكن سوى صورة مفصلة مما كتبه في ذلك في تاريخه الكبير في القسم الذي يخصصه لتاريخ البربر ويهدله بوصف عام في جغرافية هذه البلاد (راجع كتاب العبر — ج ٦ ص ٩٨ وما بعدها) .

من البردة وأربع علب من حلاوة مصر الفانحة » ولما قدمها اليه وضع تيمورلنك المصحف فوق رأسه بعد أن عرف أنه القرآن الكريم، ثم سأله عن البردة وذاق الحلوى ووزع منها على الحاضرين في مجلسه . والتمس المؤرخ منه في هذا المجلس أمانا للقضاة والرؤساء والعمال فأجابته الى طلبه وأصدر الأمان .

هذه هي رواية ابن خلدون عن صلته بالفاتح التتري ، وما وقع له . مع من المحادثات والمقابلات ، وقد كان فيها يؤدى دور السياسى القديم . ولكن مؤرخا مصر يا كبيرا معاصرا هو المقريزى يفصل هذه الحوادث تفصيلا آخر فيقول لنا إن الذى فاوض تيمورلنك فى تسليم دمشق هو القاضى تقي الدين بن مفلح الحنبلى ؛ أرسله الزعماء الى الفاتح إجابة لطلبه فى عقد الصلح بعد أن فشل فى اقتحام المدينة بالعنف ، وإن ابن مفلح بذل نفوذه لإقناع الزعماء بالتسليم ، وأنه هو الذى تدلى بعد ذلك من السور مع جماعة الأعيان والفقهاء ، واقتادهم الى معسكر الفاتح وعقد معه الصلح واستصدر منه الأمان ، ثم تولى بعد ذلك تنفيذ جميع رغائبه فى جمع المال والأسلاب . ولكن تيمورا نكث بعد ذلك عهده ، وقبض على ابن مفلح وزملائه ، واقتحم جنده المدينة ونهبوها واضرموا النار فيها^(١) . ويؤيد هذه الرواية مؤرخ مصرى آخر هو ابن إياس ، ويقول لنا إن الزعماء اختاروا ابن مفلح للمفاوضة لأنه كان يعرف التركية^(٢) . على أن المقريزى يؤيد رواية ابن خلدون

(١) السلوك — ج ٢ ورقة ٢٧

(٢) ابن إياس فى « تاريخ مصر » (بولاق) ج ١ ص ٣٣١ و ٣٣٢

في مكان آخر فيقول لنا إنه « لما علم بتوجه السلطان تدلى من سور المدينة وسار الى تيمورلنك، فأكرمه وأجلسه وأنزله عنده، ثم أذن له بالمسير الى مصر فسار اليها»، ثم يقول بعد ذلك إن تيمورلنك أصدر له مرسوم السفر وأطلق معه جماعة بشفاعته^(١). وابن خلدون صريح في روايته في أنه هو المفاوض والوسيط في عقد المهادنة بين الفاتح وأهل دمشق كما قدمنا وأنه كان ممثل الرؤساء والقضاة لدى تيمورلنك، ولا شك عندنا في روايته. وهي من جهة أخرى رواية ابن عربشاه الدمشقي مؤرخ تيمورلنك الذي كتب تاريخه قريبا من هذه الحوادث فهو يصف لقاء ابن خلدون للفاتح تحت أسوار دمشق على رأس العلماء والقضاة، ويصور لنا في عبارة شعرية ساحرة منظر هذا اللقاء وما تخلله من أحاديث ومناقشات^(٢). على أن صحة هذه الرواية لا تمنع من جهة أخرى أن يكون ابن مفلح قد اشترك في المفاوضة وتولى تنفيذ شروط التسليم ولعل ابن خلدون كان يعلق على صلته بالفاتح آمالا أخرى غير ما وفق اليه في شأن دمشق وشأن زملائه العلماء والقضاة، ولعله كان يرجو الانتظام في بطانة الفاتح والحظوة لديه والتقلب في ظل رعايته ونعمائه. على أنه لم يوفق بلا ريب إلى تحقيق مثل هذه الأمنية، فلم تمض أسابيع قلائل حتى سئم البقاء في دمشق، وذهب إلى تيمور يستأذنه في العود إلى مصر، فأذن له وطلب اليه في تلك

(١) السلوك — ج ٢ ورقة ٢٨

(٢) ابن عربشاه في كتاب «عجائب المقدور» (مصر) ص ١٢٣ وما بعدها.

وراجع كتاب «مصر الاسلامية» ص ١٢١

المقابلة أن يقدم اليه بغلة إذا استطاع فأهداه المؤرخ إياها، وبعث اليه تيمورثمنها فيما بعد عقب وصوله إلى مصر . وغادر المؤرخ دمشق في شهر رجب (سنة ٨٠٣) لنحو شهرين فقط من مقدمه اليها، ودهمه اللصوص أثناء الطريق فسلبوه ماله ومتاعه، ولكنه وصل سالماً إلى القاهرة في أوائل شعبان سنة ثلاث وثمانمائة . وهنا يهتف المؤرخ مغتبطاً بنجاته « وحمدت الله على الخلاص » ويقول لنا انه كتب الى سلطان المغرب مولاه السابق، يصف هذه الحوادث وما وقع خلالها بينه وبين تيمورلنك، ويصف له الفاتح وعظم بأسه وشاسع ملكه وروعة سلطانه .

- ٢ -

وما كاد ابن خلدون يستقر في القاهرة حتى أخذ يسعى للعود الى منصب القضاء . وقد رأينا انه كان يحتفظ دائماً بكرسي التدريس في مدرسة أو اثنتين . ولكن القضاء من مناصب السلطة والنفوذ، وكان ابن خلدون يشعر وهو في ذلك الجو المشوب بكر الحصومة والمنافسة، انه بحاجة الى ذلك النفوذ الذي اعتاد أن يتمتع به في جميع علاقته السلطانية، وكانت المعركة التي تضطرم حول ذلك الكرسي، والتي شهدنا مظاهرها في تكرار تعيينه وعزله، تذكى بلا ريب في نفسه شهوة الظفر بذلك الكرسي، فيكون ذلك آية نصره على خصومه ومنافسيه . وكان المؤرخ قد بلغ الرابعة والسبعين يومئذ، ولكن نفسه الوثابة كانت تتطلع ابداً الى مسند النفوذ والجاه . ويصور لنا هذه النفسية مؤرخ مصري نزيه ثقة في اشارة موجزة إذ يقول لنا في خاتمة ترجمته للمؤرخ « رحمه الله، ما كان أحبه

في المنصب» (١) . وكان ثمة شيء آخر الى جانب هذا الشغف بالمنصب ؛ فقد كان بين ابن خلدون وبين خصومه نضال ، وكان منصب القضاء كما سنرى محور هذه المعركة ، يرتفع ابن خلدون اليه كلما استطاع أن يسترد مكانته في القصر وان يتغلب على كيد خصومه ، ويفقده كلما نجحت سعاية خصومه في حقه .

عزل ابن خلدون من منصب القضاء للمرة الثانية في المحرم سنة ثلاث كما قدمنا ، وذهب معزولا في ركب السلطان الى الشام ، فاتخذ خصومه بعده عن القاهرة فرصة للدرس في حقه ، وزعم بعضهم انه هلك في حوادث دمشق (٢) . ويريد المؤرخ هنا أن تفهم أن المنصب كان محفوظا له أو انه وعد على الأقل برده اليه من أولى الأمر ، فيقول لنا انه على أثر هذا الإرجاف في حقه عين مكانه في قضاء المالكية ، جمال الدين الاقفهسي (جمادى الثانية سنة ثلاث) فلما عاد الى مصر عدل عن ذلك ، وعزل الاقفهسي ؛ وولى ابن خلدون للمرة الثالثة في أواخر شعبان أو أوائل رمضان (٣) ، فلبث في منصبه زهاء عام يعمل في جو يفيض بالأحقاد والخصومة ، ولكنه يقول لنا إنه لم يحفل كعادته بمصانعة الأكابر وانه استمر كما كان «من القيام بالحق والإعراض عن الأغراض» . فاضطرت

(١) ابن تغرى بردى ، في المنهل الصافي — ج ٢ ورقة ٣٠١ .

(٢) التعريف : في النسخة المخطوطة .

(٣) يذكر ابن خلدون في التعريف أن تعيينه هذه المرة كان في «أواخر شعبان»

ولكن ابن تغرى بردى يؤرخ هذا التعيين بيوم السبت ٣ رمضان سنة ٨٠٣ (المنهل الصافي ج ٢ ورقة ٣٠١) ويقول ابن إياس انه كان في ١٣ رمضان (تاريخ مصر

من حوله الدسائس القديمة، واشتدت في حقه المطاعن والمثالب، وأسفرت المعركة عن النتيجة المعتادة، وعزل المؤرخ كزة أخرى في ١٤ رجب سنة أربع (٨٠٤)، وولى مكانه جمال الدين البساطى في أواخر رجب، وهو ممن شغلوا المنصب من قبله. والظاهر أن المعركة كانت هذه المرة أكثر وضوحا وصراحة، وأن ابن خلدون عانى من حملات خصومه ما لم يعان من قبله، حتى أنه طلب بعد العزل أمام الحاجب الكبير، ووجه إليه كثير من التهم. ويقول لنا ابن حجر والسخاوى في هذا الموطن: « وادعوا عليه (أى على ابن خلدون) أمورا كثيرة أكثرها لا حقيقة له، وحصل له الإهانة ما لا مزيد عليه»^(١). وهنا اشتدت المعركة بين المؤرخ وخصومه، واستحالت إلى نضال عنيف سريع الأثر، وبقي مظهرها التداول على المنصب، ولكنه انحصر حينئذ بين ابن خلدون والبساطى، مما يدل على أن البساطى كان ممثل الحزب الذى يناوئ المؤرخ في هذا الدور من المعركة. والظاهر أيضا أن ابن خلدون كان يعتمد في مقاومة خصومه على عوامل وقوى ليست أقل أثرا مما يعتمدون عليه؛ فانه لم يمض على ولاية البساطى نحو ثلاثة أشهر حتى عزل في أوائل ذى الحجة، وعين ابن خلدون للمرة الرابعة في ١٦ ذى الحجة، واستمر في المنصب عاما وشهرين؛ ثم رجحت كفة خصومه فعزل في السابع من ربيع الأول سنة ست (٨٠٦)، وأعيد البساطى في الشهر نفسه، ثم عزل في شهر رجب سنة سبع؛ وأعيد

(١) ابن حجر في كتاب «رفع الاصر عن قضاة مصر» (مخطوط دار الكتب السالف الذكر) ورقة ١٥٩ — وينقله السخاوى في الضوء اللامع.

ابن خلدون للمرة الخامسة في شعبان سنة سبع ، ثم عزل بعد ثلاثة أشهر في ٢٦ ذى القعدة من نفس العام ، وأعيد خصمه القديم جمال الدين الاقفهسى فلبث ثلاثة أشهر ، ثم عزل وخلفه جمال الدين التنسي لمدة يومين فقط ، ثم أعيد البساطى في ربيع الأول سنة ثمان (٨٠٨) وعزل في شعبان من العام ذاته ، ثم أعيد ابن خلدون للمرة السادسة ، فلبث في منصبه بضعة اسابيع فقط (١) . وفي السادس والعشرين من رمضان سنة ثمان وثمانمائة (١٦ مارس سنة ١٤٠٦م) توفي المؤرخ والمفكر الكبير ، قاضيا للالكية ، وقد بلغ الثامنة والسبعين من حياة باهرة حافلة بجليل الحوادث ، ورائع التفكير والابتكار ، ودفن بمقبرة الصوفية خارج باب النصر (٢) ، وهي يومئذ من مقابر العظماء والعلماء . ويصل ابن خلدون في تدوين أخبار هذا النضال العجيب حتى عزله للمرة الخامسة في ذى القعدة سنة سبع اعنى الى ما قبل وفاته بعدة اشهر فقط .

(١) راجع في أدوار هذه المعركة وحوادث التعيين والعزل — ابن خلدون نفسه في التعريف (النسخة الخطية ص ١٤٧) ، وحسن المحاضرة للسيوطى (مصر) ج ٢ ، ص ١٢٣ ، والممثل الصافى (ج ٢ ورقة ٣٠١) ، وتوجد مفارقات يسيرة في التواريخ في مختلف الروايات .

(٢) السخاوى في الضوء اللامع — المجلد الثانى من القسم الثانى — ص ٣٧٠ .

الفصل الثامن

ابن خلدون والتفكير المصرى

ابتعاد ابن خلدون في مصر عن أحداث السياسة . إنتاجه الأدبى في هذه الفترة . حكم ابن خلدون على المصريين . بذور الخصومة بينه وبين المجتمع القاهرى . حملات الكتاب المصرىين عليه . موقف الحافظ ابن حجر منه ومن مؤلفه . مطاعن الزركاكي والبشيشى والعينى في حقه . حملة السخاوى عليه . الجناح الذى يؤازره من الكتاب المصرىين . تقدير المقرئزى له ولتفكيره . تأثير المقرئزى بتفكيره ونظرياته . ظهور هذا التأثير في كتابات المقرئزى . نظريات المقرئزى في أسباب محن مصر . شهادة أبى المحاسن لابن خلدون . اقتباس الفلقشندى من آثاره . حياة ابن خلدون في مصر . عزله وآلامه المعنوية . أين كان يقيم في القاهرة . أين يثوى الثواء الأخير .

— ١ —

قضى ابن خلدون في مصر ثلاثة وعشرين عاما (٧٨٤ — ٨٠٨ هـ) ولكنها كانت بين مراحل حياته أقلها حوادث وأقلها إنتاجا .

فأما عن الحوادث فإن الحياة السياسية العاصفة التى قضاهها ابن خلدون بالمغرب ، والتي جاز خلالها معتركا شاسعا من المغامرات والدسائس الخطرة ، وعانى كثيرا من الخطوب والمحن ، كما نعم مرارا بمراتب النفوذ والسلطان ، والتي هى فى الواقع صفحة قوية شائقة من تاريخ المغرب فى أواسط القرن الثامن ، هذه الحياة المضطربة العاصفة ، استبدلها المؤرخ فى مصر بحياة أكثر هدوءا ودعة .

وفي مصر يعيش ابن خلدون شخصية عادية لا علاقة لها بشئون الدولة العليا، بعد أن لبثت بالمغرب ربع قرن روح هذه الشئون؛ يتجرد من ثوب السياسي المغامر ليتشح بثوب العالم المقتدر، وليستوحى نفوذه المحدود من هذه الناحية. على أن المؤرخ لقي في هذه الفترة حادثين من أهم حوادث حياته، هما فقد أسرته، ولقاؤه للفاتح التتري تيمور لنگ.

وأما عن الإنتاج الأدبي، فقد رأينا أن المؤرخ حقق أعظم أعمال حياته، أعنى كتابة تاريخه الضخم ومقدمته الرائعة قبل مقدمه الى مصر. ولا نعرف أن ابن خلدون وضع أثناء مقامه بمصر مؤلفا جديدا، غير أن الذى لا ريب فيه هو أن وجوده بمصر على مقربة من المكاتب والمراجع الشاسعة، قد أتاح له فرصة التثقيح والتهديب والإضافة فى التاريخ والمقدمة؛ وسنرى فى فصل قادم أنه استمر فى مراجعة مؤلفه والزيادة فيه فى مواطن كثيرة، ولا سيما فى أنباء الدول الإسلامية بالمشرق، وأنباء الدول المغربية والأندلس فى عصره، وأنه وصل فى رواية حوادث عصره حتى خاتمة القرن الثامن بعد أن كان يقف بها عند سنة ٨٨٣، عام الفراغ من وضع مؤلفه. كذا استمر المؤرخ فى كتابة ترجمة حياته أثناء إقامته بمصر، واستمر فيها الى قبيل وفاته، وضمها فصولا جديدة عن خواص دول المماليك المصرية، ونشأة التتار. وكتب أثناء مقامه بالشام وصفا لبلاد المغرب ورفعها الى تيمور لنگ كما قدمنا. كذلك لا ريب فى أن ابن خلدون كان يعنى فى دروسه ومجالسه ببحث مبادئه وآرائه الإجتماعية وشرحها.

غير أن ابن خلدون لم يستطع على ما يظهر أن ينشئ له بمصر مدرسة حقيقية ، يطبعها بأرائه ومناهجه ، وقد كان حريا أن ينشئ مثل هذه المدرسة في بلد انقطع فيه للبحث والدرس أعواما طويلة . نعم إن التفكير المصرى المعاصر ليس خلوا من تأثير ابن خلدون كما سنرى ، ولكن هذا التأثير الذى كان حريا أن يزدهر بمصر وأن ينبث في مدرستها التاريخية التى كانت يومئذ في أوج قوتها ، كان ضئيلا محدود المدى . ونستطيع أن نرجع ذلك الى الروح الذى استقبل به المؤرخ من المجتمع المصرى المفكر ، وهو روح نفور وخصومة ، فقد جاء ابن خلدون الى مصر يسبقه حكمه على المصرين في مقدمته بأنهم قوم « يغلب الفرح عليهم والحفة والغفلة عن العواقب »^(١) ويورد ابن خلدون هذه الملاحظة في معرض كلامه عن أثر الهواء في أخلاق البشر ويعتبرها نتيجة لوقوع مصر في المنطقة الحارة . على أنه مهما اتخذت هذه الملاحظة سمة البحث العلمى فإنها لا يمكن أن تقابل ممن قيات في حقهم بغير الإستياء والحفيظة . وكان طبيعيا أن يحدث هذا الغرس السيئ أثره في شعور المجتمع المصرى المفكر نحو المؤرخ . وكان هذا المجتمع نفسه يجيش عندئذ بكثير من عوامل الخصومة والمنافسة ، وزعامته يطبعها لون من الحفاء والقطيعة . وكان اضطراب المنافسة بين أعلام التفكير والأدب يومئذ سواء في ميدان التفوق والنبوغ ، أو في تحصيل ما تسبغه الزعامة الأدبية من الجاه والرزق ، ظاهرة هذه الخصومة . وكان المجتمع القاهرى الأدبى ينقسم عندئذ الى

شيع وطوائف تتحاز كل شيعة أو طائفة الى زعيم أو جناح معين من الزعماء فتؤيد جهوده الأدبية وتناجز خصومه في ميدان الجدل . فلم يكن من السهل على أجنبي مثل ابن خلدون جاء ينتظم في سلك هذا المجتمع منافسا في طلب الجاه والرزق ، أن ينعم بصفاء الأفق ، أو يلقى خالص المودة والصدافة . هذا إلى ما كان يغلب على خلاله من حدة وصرامة وكبرياء تزيد من حوله الجفاء والقطيعة .

كان طبيعيا أن تلقى آراء ابن خلدون ودروسه في هذا الأفق الكدر من الإعراض والانتقاص أكثر مما تلقى من الإقبال والتقدير وأن تكون محدودة الذبوع والأثر . ومع ذلك فقد درس على ابن خلدون جمهرة من أعلام التفكير والأدب المصريين وانتفعوا بعلمه ، وظهر أثره جليا في بعض ثمرات التفكير المصرى المعاصر . ومن درس عليه وانتفع بعلمه الحافظ ابن حجر العسقلانى المحدث والمؤرخ الكبير ، فهو يقول لنا في كتابه « رفع الإصر عن قضاة مصر » إنه « اجتمع بابن خلدون مرارا وسمع من فوائده ومن تصانيفه خصوصا في التاريخ » وإنه « كان لسنا فصيحا حسن الترسل وسط النظم مع معرفة تامة بالأمر خصوصا متعلقات المملكة » ، وإنه كان جيد النقد للشعر وإن لم يكن بارعا فيه^(١) . بيد أن ابن حجر يحمل على ابن خلدون بشدة وينقل في ترجمته كثيرا مما قيل في ذمه وتجرمجه . فهو يقول لنا في تاريخه إن ابن خلدون مؤرخ بارع « ولكنه لم يكن مطالعا على الأخبار على جليتها ولا سيما أخبار

(١) رفع الإصر (المخطط المشار اليه) ورقة ١٦٠ - ونقله السخاوى في

المشرق»^(١) ويعارض المقرئ في مدح المقدمة ويرى أنها لا تمتاز بغير « البلاغة والتلاعب بالكلام على الطريقة الجاحظية » وان محاسنها قليلة ، « غير أن البلاغة تزين بزخرفها حتى يرى حسنا ما ليس بحسن »^(٢) وأما ابن خلدون كقاض فإن ابن حجر يقول لنا إنه باشر القضاء بعسف وبطريقة لم تألفها مصر ، وانه لما ولى المنصب تنكر للناس وقتك في كثير من أعيان الموقعين والشهود ، وانه عزل لأول مرة بسبب ارتكابه التدليس في ورقة^(٣) ، ثم ينقل في هذا الموطن كثيرا مما قيل في ذم المؤرخ وتجريحه . من ذلك « ان أهل المغرب لما بلغهم ولايته للقضاء تعجبوا ونسبوا المصريين إلى قلة المعرفة بحيث قال ابن عرفة^(٤) ، كما نعد خطة القضاء أعظم المناصب فلما وليها هذا عددناها بالضد من ذلك » ومن ذلك قول الركاكي أحد الكتاب الذين عملوا مع ابن خلدون « انه عرى عن العلوم الشرعية » بل ينقل ابن حجر أيضا بعض المطاعن الشخصية والأخلاقية التي قيلت في حق المؤرخ ، من ذلك ما نقله عن العينتابي وهو أنه كان يتهم بأمر قبيحة^(٥) ، وما نقله عن كتاب القضاة للبشيشي ، وهو « أن ابن خلدون كان في أعوامه الأخيرة يشغف بسماع المطربات ومعاشرة الأحداث وانه تزوج امرأة لها أخ أمرد ينسب للتخليط » وانه

(١) أنباء الغمر في أنباء العمر (مخطوط دار الكتب) — ج ١ ص ٧١١

(٢) رفع الإصر — ورقة ١٦٠

(٣) رفع الإصر — ورقة ١٥٩

(٤) ابن عرفة مفتي تونس ، وكان خصما لابن خلدون كما قدمنا

(٥) أنباء الغمر — ١ ص ٧١١

كان « يكثر من الازدراء بالناس ، وانه حسن العشرة إذا كان معزولا فقط فاذا ولى المنصب غلب عليه الجفاء والتزق فلا يعامل بل ينبغي أن لا يرى » . وهذه أقوال تنم عن خصومة مضطربة ، ومبالغة في الانتقاص تتحدر إلى معترك السباب والقذف . وقد كان البشبيشى ^(١) بلا ريب من ألد خصوم المؤرخ وأشدهم وطأة عليه . وقد دون حملاته على المؤرخ في كتاب ألفه في تاريخ القضاة ولم يصل إلينا ولكن ابن حجر ينقل إلينا منه تلك الفقرات الشخصية اللاذعة . وأخيرا يقول ابن حجر إن ابن خلدون كان يتمسك بزیه المغربى ويأبى أن يرتدى زى القضاة لا لشيء سوى حبه المخالفة فى كل شيء ^(٢) .

وموقف الحافظ ابن حجر من ابن خلدون وأثره يدعو إلى التأمل ؛ فهو على رغم اتزانه واعتداله وتحفظه ينساق هنا إلى نوع من التجريح والانتقاص ليس مألوقا فى كتاباته . ولا ريب أن فى لهجته وأقواله مبالغة وتحامل . ولكن لا ريب أيضا أن لها قيمتها فى تقدير الرأى المصرى المعاصر لابن خلدون ، بل نستطيع أن نعتبرها ممثلة لرأى الفريق المفكر الذى كان يناهض المؤرخ ويشتد فى تجريحه

(١) وهو الجمال عبد الله البشبيشى . ولد سنة ٧٦٢ هـ بقرية بشبيش من أعمال الغربية ، وتوفى سنة ٨٢٠ هـ . وكان من أكابر فقهاء الشافعية ومن أقطاب الأدب واللغة . وقد ولى الحسبة بالقاهرة حيناً "ترجمته فى الضوء اللامع — القسم الثالث المجلد الثانى ص ٥١١"

(٢) رفع الإصر فى مواضع مختلفة من ترجمة ابن خلدون — الورقة ١٥٨ الى

والحملة عليه ، وقد كان الفريق الأقوى بلا ريب لأنه كان يضم كثيرا من المفكرين والفقهاء البارزين مثل ابن حجر ، والجمال البشبيشى ، والركراكى ، وبدر الدين العيني (العينتابى) . وقد امتدت آثار هذه الخصومة الأدبية طوال القرن التاسع الهجرى حتى جاء السخاوى فى أواخر هذا القرن يردد كل ما ذكره ونقله شيخه ابن حجر فى ذم ابن خلدون وتجريحه والانتقاص من أثره ، ولكن فى لهجة مرة لاذعة تم عن الحبث وقصد التشهير والهدم ، أكثر مما تم عن قصد النقد الصحيح . وهذه الروح المرة اللاذعة تبدو فى معجمه (الضوء اللامع) فى معظم تراجم الشخصيات البارزة ، بيد أنه يعترف فى كتاب آخر له « بنفاسة » مقدمة ابن خلدون ، ويبدو أكثر اعتدالا وتقديرا (١) .

على أن ابن خلدون كان من جهة أخرى يحظى بتقدير فريق قوى من رأى المصرى المفكر . وكان على رأس هذا الفريق المؤرخ العلامة تقي الدين المقريزى . فقد درس المقريزى فى فتوته على ابن خلدون وأعجب بغزير علمه ، ورائع محاضراته ، وطريف آرائه ونظرياته . ويتحدث المقريزى عن شيخه ابن خلدون بمنتهى الخشوع والإجلال وينعته « بشيخنا العالم العلامة الأستاذ قاضى القضاة » (٢) ويتتبع أخباره فى مصر والشام فى كتابه « السلوك » ويترجمه فى كتابه « درر العقود الفريدة » بأسهاب وأعجاب ،

(١) كتاب الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ — (مصر) ص ١٥١

(٢) راجع خطط المقريزى — ج ٢ ص ٧٦ و ١٩٠

ويرتفع في تقدير مقدمته إلى الذروة فيقول : « لم يعمل مثلها ،
وإنه لعريز أن ينال مجتهد منالها ، إذ هي زبدة المعارف والعلوم
ونتيجة العقول السليمة والفهوم ، توقف على كنه الأشياء ،
وتعرف حقيقة الحوادث والأنباء ، وتعبر عن حال الوجود وتنبئ
عن أصل كل موجود ، بلفظ أبهى من الدر النظيم ، وألطف
من الماء سرى به النسيم » (١) . وهو تقدير يعارضه فيه ابن حجر
كما قدمنا . ويأخذ ابن حجر وتلميذه السخاوي على المقرئ موقفه
من ابن خلدون ، ويرميانه بالمبالغة والإفراط في تعظيمه وإجلاله ،
ويقدم إلينا ابن حجر تعليلا لهذا الموقف ، هو أن المقرئ كان
ينتمي إلى الفاطميين وابن خلدون يجزم بأثبت نسبهم ، ثم يقول
لنا ، إن المقرئ غفل في ذلك عن مراد ابن خلدون ، فإنه كان
لأنحرافه عن آل علي ، يثبت نسب الفاطميين إليهم ، لما اشتهر
من سوء معتقد الفاطميين وكون بعضهم نسب إلى الزندقة وادعى
الألوهية (٢) .

وقد تأثر المقرئ فوق تعظيمه وتقديره لابن خلدون
بنظرياته تأثرا كبيرا . وظهر هذا الأثر واضحا في كتابه « إغاثة الأمة
بكشف الغمة » الذي انتهت إلينا نسخة وحيدة منه تحتفظ بها دار

(١) لم يصلنا من « درر العقود الثريدة » سوى قطعة صغيرة . واعتمادنا
هنا على ما نقله السخاوي وابن حجر عن المقرئ — في الضوء اللامع للسخاوي ؛
وفي رفع الإصر وأنباء الغمر لابن حجر .

(٢) رفع الإصر — الورقة ١٦٠ — ونقله السخاوي في الضوء اللامع .

الكتب المصرية (١) .

ففى هذا الكتاب الذى يقول لنا المقريزى إنه كتبه فى ليلة واحدة من ليالى المحرم سنة ٨٠٨، والذى يتحدث فيه عن محن مصر منذ أقدم العصور إلى عصره ، ينحو المقريزى فى الشرح والتعليل منحى شيخه وأستاذه ابن خلدون فى مقدمته . فيقدم لرسالته بمقارنة موجزة بين الماضى والحاضر، وما يخص لما جازته مصر من محن الغلاء والشرق منذ الطوفان إلى عصره، ثم يفرد لنا فصلا يتحدث فيه عن الأسباب التى نشأت عنها هذه المحن وأدت إلى استمرارها طوال هذه الأزمان . وفى هذا الفصل نرى منهج ابن خلدون فى البحث والتعليل واضحا ، بل نرى المقريزى يستعمل ألفاظ شيخه وعباراته مثل « أحوال الوجود وطبيعة العمران » وما إليها .

• فى رأى المقريزى أن أسباب الحراب والمحن ، ترجع أولا : إلى تولية الخطط السلطانية والمناصب الدينية بالرشوة ، واستيلاء الظلمة والجهلاء عليها، وثانيا : إلى غلاء ايجار الأطيان ، وزيادة نفقات الحرث والبذر والحصاد (نفقات الانتاج) على الغلة ، وثالثا : إلى ذبوع التقد المنحط ، ويتبع ذلك بنبذة فى تاريخ العملة فى الدول الاسلامية ومصر . ثم يتحدث عن طبقات المجتمع ، وأوصاف الناس ، ويقسم المجتمع المصرى إلى سبعة أقسام :

(١) أهل الدولة .

(٢) أهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرفاهة .

(١) توجد هذه النسخة ضمن مجموعة خطية محفوظة برقم (٧٧ مجاميع م) وتشغل

(٣) الباعة وهم متوسطو الحال من التجار ، وأصحاب المعاش وهم السوقة .

(٤) أهل الفلح وهم أرباب الزراعة والحراث وسكان الريف .

(٥) الفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم .

(٦) أرباب المصالح والأجر وأصحاب المهن .

(٧) ذوى الخصاصة والمسكنة الذين يتكففون الناس .

ويذكر المقرئزى أحوال كل فريق بالتفصيل . ثم يتحدث عن أسعار عصره وبخاصة أسعار المواد الغذائية ، ويختتم بشرح رأيه فى معالجة هذه المحن ، وهو أن يغير نظام العملة ، فلا يستعمل منها إلا المكين الثابت من ذهب وفضة ، وهى فكرة تثبيت النقد بعينها .

هكذا ينحو المقرئزى فى الشرح والتعليل . وهكذا نلمس أثر المؤرخ واضحاً فى منهج تلميذه ، ونستطيع أن نجد كثيراً من أوجه الشبه بين ما يعرضه المقرئزى فى رسالته ، وبين ما كتبه ابن خلدون فى مقدمته عن طبيعة الملك وعوامل فسادها ، وعن السكة ، وعن أثر المكوس فى الدولة ، وأثر الظلم فى نحراب العمران ، وكيف يسرى الخلل الى الدولة وتغلبها وفرة العمران والغلاء والقحط ، وغير ذلك مما يتعلق بانحلال الدول وسقوطها ،^(١) بل نستطيع أن نلمح مثل هذا الأثر فى بعض ما كتبه السخاوى نفسه فى كتابه « الإعلان بالتوبيخ » عن قيمة التاريخ وأثره فى دراسة أحوال

(١) راجع هذه الفصول فى مقدمة ابن خلدون ، ص ١٤٠ - ١٤١

الأمم، فهنا يبدو السخاوى أيضا رغم خصومته لابن خلدون متأثرا بفكرته الفلسفية في شرح التاريخ وفهمه .

وهناك مؤرخ مصرى آخر هو أبو المحاسن بن تغرى بردى يشاطر شيخه المقرئى تقديره لابن خلدون، ويشيد بمقدرته ونزاهته فى ولاية القضاء، ويقول لنا انه باشر القضاء بجرمة وافرة وعظمة زائدة وحمدت سيرته (١) .

ويظهر أثر ابن خلدون أيضا فى اعتماد بعض أكابر الكتّاب المصرين المعاصرين عليه والاقْتباس من مقدمته وتاريخه . ومن هؤلاء أبو العباس القلقشندى صاحب كتاب « صبح الأعشى » فإنه يقتبس من ابن خلدون فى مواضع شتى من موسوعته (٢) .

- ٣ -

هذه صورة دقيقة شاملة لحياة ابن خلدون فى مصر، وصلاته بحياتها العامة، وأثره فى حركتها الفكرية المعاصرة . وهذه الحقبة من حياة المؤرخ، وهى حقبة طويلة امتدت ثلاثة وعشرين عاما، تخالف فى نوعها وظروفها حياته بالمغرب، ففى المغرب عاش ابن خلدون بالأخص سياسيا يتقلب فى خدمة الدول والقصور المغربية، وينحوض غمر دسائس ومخاطرات لانهاية لها . ولكنه عاش فى مصر عالما وقاضيا، واذا استثنينا مفاوضاته مع تيمور لنگ فى حوادث دمشق، وسعيه الى عقد الصلة بين بلاط

(١) المنهل الصافى - ج ٢ ورقة ٣٠٠ .

(٢) راجع « صبح الأعشى » ج ٤ و ٥ و ٦ ففها أمثلة كثيرة من هذا

القاهرة وسلاطين المغرب ، فانه لم يتح له أن يؤدي في سير السياسة المصرية دورا يذكر . واذا كان ابن خلدون قد خاض في مصر معترك الدسائس أيضا ، فقد كان هذا المعترك محليا محدود المدى ، شخصيا في نوعه وغاياته .

وكانت حياة ابن خلدون في مصر أكثر استقرارا ودعة ، وأوفر ترفا ونماء من حياته بالمغرب . ولكن الظاهر أن سحبا من الكآبة والألم المعنوي كانت تغشى هذه الحياة الناعمة . فقد كان ابن خلدون في مصر غريبا بعيدا عن وطنه وأهله ، وكان يعيش في جو يشوبه كدر الحصومة وجهد النضال . ونستطيع أن نلمس ألم البعاد في نفس المؤرخ في بعض المواطن ، فهو يذكر غربته حين يتحدث عن اتصاله بالسلطان أثر مقدمه ويقول إن السلطان « أبر مقامه وآنس غربته » ، وهو يكشف لنا عن هذا الألم في مواطن كثيرة .

ولا ريب أن هلاك أسرة المؤرخ كانت عاملا في إذكاء هذا الألم المعنوي ، وهو يتحدثنا عن هذه الفاجعة بلهجة الحزن واليأس حين يقول : « فعظم المصاب والجزع ورجح الزهد » .

وكان المؤرخ يؤثر حياة العزلة في فترات كثيرة ، وهو يشير إلى ذلك في بعض المواطن ، حيث يقول لنا انه : « لزم كسر البيت ممتعا بالعافية لابسا برد العزلة » . وتشير التراجم المصرية الى هذه العزلة فيقول لنا السخاوي : « ولازمه (أي المؤرخ) كثيرون في بعض عزلاته ، فحسن خلقه معهم وباسطهم ومازحهم » . وكان المؤرخ يشتغل في هذه الفترات بمراسلة أصدقائه بالمغرب

والأندلس من السلاطين والأمراء والفقهاء ، وهو يشترى ذلك في عدة مواضع .

وقد يكون من الشائق أن نعرف أين كان يقيم المؤرخ بالقاهرة . ولدينا عن ذلك نصان نقلهما ابن حجر عن الجمال البشبيشى ، ويقول الجمال في أولهما : « انه كان يوما بالقرب من الصالحية فرأى ابن خلدون وهو يريد التوجه الى منزله وبعض نوابه أمامه ... » فيلوح من هذه الإشارة ان المؤرخ كان يقيم مدى حين على مقربة من الصالحية في الحى الذى تقع فيه هذه المدرسة أعنى حى بين القصرين أو فى أحد الأحياء القريبة منه ، وذلك لأن مركز وظيفته كقاض للقضاة كان بهذه المدرسة ولان إيوان الفقهاء المالكية كان يقع بجوارها^(١) . وأما فى النص الثانى فيقول لنا الجمال ما يأتى مشيراً الى ولاية ابن خلدون للقضاء عقب عودته من دمشق سنة ثلاث وثمانمائة : « الا أنه (أى ابن خلدون) تبسط بالسكن على البحر وأكثر من سماع المطربات ... الخ »^(٢) . ويستفاد من ذلك ان المؤرخ كان يقيم فى هذا الحى فى أحد الأحياء الواقعة على النيل ، ولعله جزيرة الروضة أو لعله بالضفة المقابلة من الفسطاط ، حيث كانت لاتزال بقية من الأحياء الرفيعة التى قامت هنالك مذ خُطت الروضة وعمرت وصارت منزل البلاط فى أواسط القرن السابع ، وسكن الكبراء والسراة فى الضفة المقابلة لها من الفسطاط .

(١) راجع خطط المقرئى - ج ٢ ص ٣٧١ و ٣٧٢

(٢) سبق أن أشرنا الى هذا النص . ويراجع النصان فى كتاب رفع الإصر لابن

حجر فى ترجمة ابن خلدون .

ويرجح هذا الفرض ان المدرسة القمحية التي كان يدرس فيها ابن خلدون بلا انقطاع كانت تقع على مقربة من هذا الحى . هذا وأما مشوى المؤرخ الأخير ، فقد ذكر لنا السخاوى أنه دفن « بمقابر الصوفية خارج باب النصر » . ويحدثنا المقرئ عن موقع هذه المقابر^(١) وقد كانت تقع بين طائفة من التراب والمدافن التي شيدها الأمراء والكبراء فى القرن الثامن خارج باب النصر فى اتجاه الريدانية (العباسية) . ومقبرة الصوفية هذه أنشأها صوفية الخانقاه الصلاحية فى أواخر القرن الثامن فى هذا المكان وخصصت لدفن الصوفية ، وقد كان المؤرخ كما نذكر ، مدى حين شيخا لخانقاه بيسرس .

فهل يكشف لنا الزمن يوما عن مشوى رفات المفكر العظيم فيغدو قبره أثرا جليلا يحج إليه المعجبون برائع تفكيره وخالد آثاره ؟

(١) الخطط - ج ٢ ص ٤٦٣ .